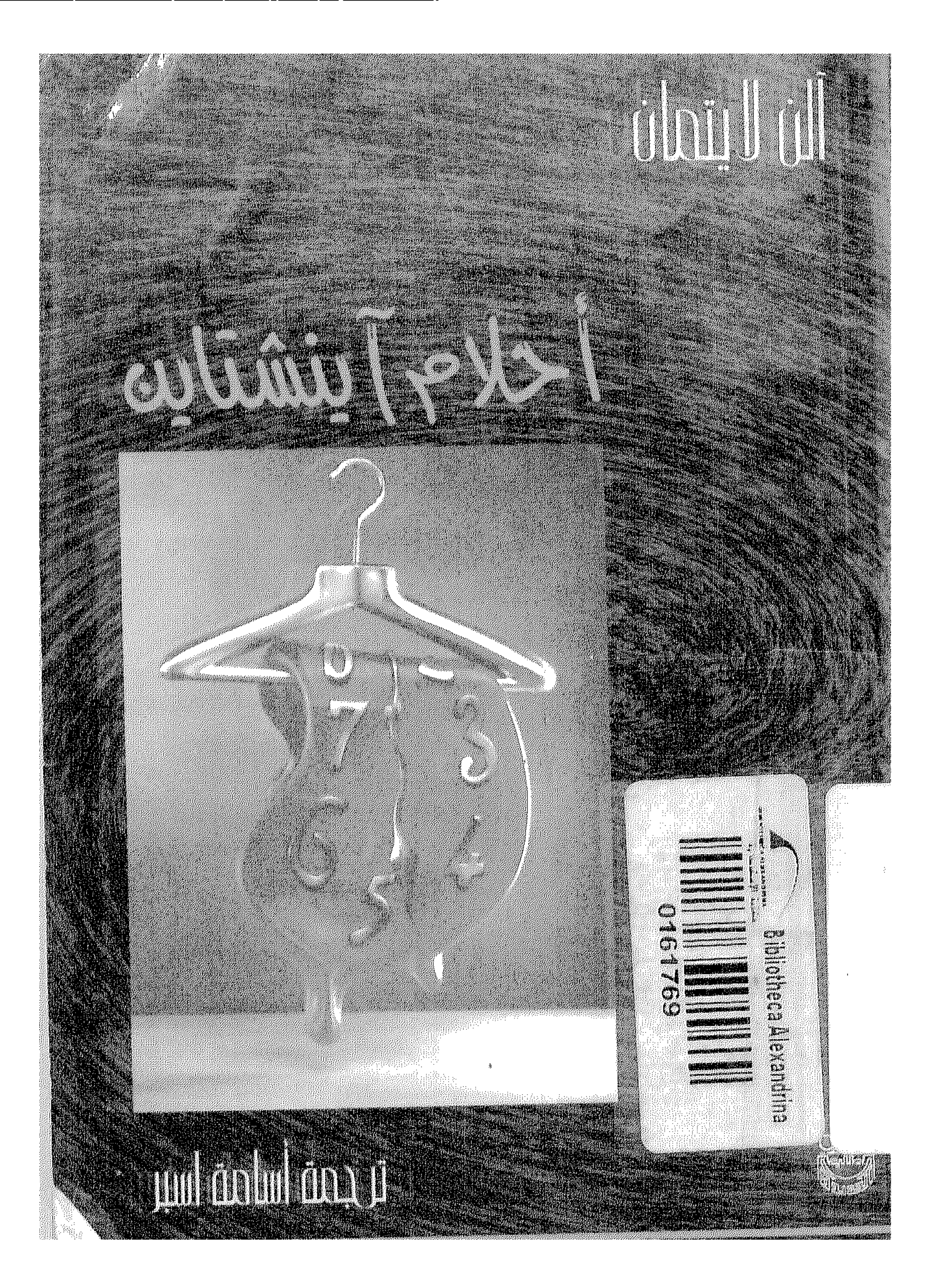

آلن لايتمان
أحلام آينشتاين
ترجمة أسامة أسبر
Bibliotheca Alexandrina
0161769



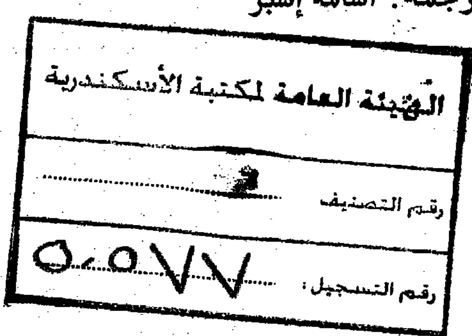
أحلام آينشتاين


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آلـن لايتمـان

أحـلام آينشتاين

ترجمة: أسامة إسبر



عنوان الكتاب: أحلام آينشتاين EINSTEIN' S DREAMS

اســـم المؤلف: آلان لايتمان ALAN LIGHTMAN

اســـم المترجم: أسامة اسبر

الطبعة الأولى - 1997

دار الطليعة الجديدة

سوريا - دمشق - ص.ب 34494

هـ: 7775872

اخراج: هالة فطوم

صمم الغلاف: جمال سعيد

لوحة الغلاف للفنان: سلفادور دالي

حول الرواية والمؤلف

«ثمة مكان يقف فيه الزمن ساكناً. قطرات المطر معلقة في الهواء بلا حراك. تتدلى نواسات الساعات في المنتصف، كمسافر يتحرك متباطئاً أكثر فأكثر ليدنو من هذا المكان من أية جهة كانت».

إنه عام ١٩٠٥ في مدينة بيرن السويسرية. كان موظف براءات اختراع شاب يحلم أحلاماً مدهشة عن طبيعة الزمن. إنه ألبرت آينشتاين الذي أوشك على الانتهاء من نظرية النسبية. كيف كانت أحلامه في تلك الأشهر القليلة الأخيرة والمهمة جداً؟

هنا، في هذا الكتاب الفائق للعادة، الذي حظي باحتفاء كبير، وعلى مستوى رفيع، والذي ألفه عالم الفيزياء آلن لايتمان، تستحضر ثلاثون حكاية خرافية، عوالم نظرية عديدة حول الزمن، كانت مواضيع أحلام في ليال كثيرة.

الزمن دائري في أحد العوالم، مقدّر على سكانه أن يكرروا النجاح والبلاء مرة تلو أخرى... وفي عالم آخر يحاول الرجال والنساء التقاط

الزمن، الذي يبدو كعندليب في إناء يشبه الجرس، وفي آخر لا يوجد زمن، ثمة لحظات متجمدة فقط.

وهذه كلها رؤى تسبر جوهر الزمن، مغامرة الإبداع، عظمة الإحتمال وجمال...

أحلام آينشتاين.

ولد آلن لايتمان في ممفيس Memphis، تينيسي Tennessee في ١٩٤٨ ودرس في جامعة برنستون ومعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا. كتب لصحف ومجلات مثل: The New Yorker ,Review of Books, New York, Harper's, Granta. من كتبه السابقة: انتقال الزمن وغليون بابا جو، يانكي مودرن في محكمة بكونيكتيكت، أصول، الضوء القديم، أفكار عظيمة في الفيزياء وزمن النجوم. وأحلام آينشتاين هي روايته الأولى.

يدرّس لايتمان الفيزياء وفن الكتابة في معهد ماسّاتشوسيتس للتكنولوجيا.

مما قيل في الرواية

رواية متألقة عـن الزمـن في طيرانـه المدهـش... مكتوبـة بأسـلوب بديع ، ساحرة، عميقة التأثير.

شيكاغو صن تايمز

«مزج السيد لايتمان مواهبه بنجاح ليبدع عملاً متخيـلاً يستقصي دوافع عالم عظيم»

دالاس مورنينغ نيوز

غرائبية وتأملية ، لعوبة ومثيرة... تشـد القارىء إلى عـالم حلمـي مثل مغناطيس قوي ، إن العناصر الفانتازيـة في القصـة تسـتند إلى نـثر دقيق وواضح مثل أعمال كالفينو».

نيويورك تايمز

«انطباعية... الكتابة بسـيطة وجميلـة ، تعـبّر بشـكل أفضـل مـن معظم النصوص عن غرابة أفكار آينشتاين».

تايمز

عمل روائي جميل يستقصي طبيعة الإبداع، يقربك من عالم آينشتاين الداخلي... لايتمان كاتب رائع

مينيبوليس ستار تريبيون

جريئة، منجزة بذكاء وفكاهة.

بابليشرز ويكلي

اجمالاً يقارب هذا العمل اللعب الفكري لآينشتاين الذي يُقال عنه إنه عمل كفنان من خلال الخيال والحدس أكثر مما عمل كعالم».

فيلج فويس ليتريري سبليمنت

«إن بساطة وفكر هذه الرواية يذكران بـ بريموليفي... تجتاز بعض اختبارات العمل الكلاسيكي: تحرّض على إعادة قراءة فوريّة ولا يمكن أن يحل وصفها مكان تجربة قراءتها إنها قصيرة جداً لكنها تبقى طويلاً في الذاكرة.

نيتشر

رواية أولى ممتازة

تايمز ليتريري سابليمنت (لندن)

هذا كتاب قصيرٌ ومدهش ويجب أن يقرأه حتى الأكثر إنشغالاً بيننا...

ستريت بيتسبرغ تايمز

رواية أولى مدهشة... تأخذنا إلى أبعد مما اعتدنا أن نؤخذ إليه... أصيلة... وذكية

ساندي تايمز (لندن)

«متعةٌ»

الإيكونوميست

«عمل خيالي رائع يضعه فوراً في الصفوف الأمامية لكتاب الواقعية السحرية: كالفينو، بورخس ولوسيوس شيبارد.

بالم بيتش بوست

إن رواية آلن لايتمان خلاّبة، بعيدة النظر، قويّة، طريفة، إيروسيّة، مثيرة وتنويرية. إنها عمل أدبي كلاسيكي متألّق البساطة وفاتن التعقيد. إن فكرنا يتجدّد مع كل صفحة.

ممفيس كوميرشيال أبل

«لعوب، فائقة للعادة... توازن بدقة بين الشعر واللغة الفيزيائية المبسطة... يدخل لايتمان القارىء إلى أعمال ذهن علمي خلاق.

كيركاس ريفيوز

كتابٌ صوفيٌّ رائع الغرابة وذكي حول التأملات في الزمن، شعري وجديد.

شيكاغو تريبيون

«كتابٌ ساحرٌ»

واشنطن بوست بوك وورلد

فاتنة بشكل لا نهائي تحقيق خلاّب حول الطبيعة البشرية السامية والمأساوية والعالقة بالزمن.

ممتعة... (لايتمان) فنانٌ يرسم بمفهوم الزمن... استقصاء لطبيعة الزمن الماكرة.

لوس انجلوس تايمز

«محرضة للتفكير... ممتعة للقراءة».

وول ستريت جورنال

مقدمـــة

في رواق مقنطر ما تدق ساعة بـرجٍ ست مـراتٍ وتتوّقف. يتهاوى الشاب علـى مكتبـه. جاء إلى الدائـرة فجراً بعد إزعاج آخر. شعره غير ممّشطٍ وبنطاله فضفاض يحمل بيده عشرين صفحة مجعّدة تحـوي نظريتـه الجديدة في الزمن التي سيرسلها إلى مجلـة الفيزيـاء الألمانية.

تدخل الغرفة أصواتٌ خافتةٌ قادمة من المدينة تطنُّ زجاجة حليب على حجر. تتقلقل ظلّة حـانوت في السوق، تتحرك عربة خضار ببطء في الشـارع، يتحـدث رجل وامرأة بنبرتين هامستين في شقة في الجوار.

في الضوء الباهت الذي يتغلغل في الغرفة تبدو المقـاعد مظلّلة وناعمة كحيوانات ضخمة نائمة. وباستثناء مكتـب

الشاب الذي تتبعثر عليه كتب نصف مفتوحة، تتغطى المكاتب الإثنا عشر بسجلات تُركت البارحة مرتبة بأناقة. حين يصل الموظفون بعد ساعتين سيعرف كل منهم أين يبدأ بدقة. لكن، في هذه اللحظة في هذا الضوء الباهت، ليست السجلات التي على المكاتب مرئية أكثر من الساعة الكبيرة التي في الزاوية أو كرسي السكرتيرة قرب الباب. كل ما يمكن أن يرى في هذه اللحظة هو الأشكال الداكنة للمكاتب والشكل المحدّب للشاب.

إنها السادسة وعشر دقائق وفقاً لساعة الحائط اللامرئية. لحظة بعد لحظة، تتخذ أشياء جديدة أشكالاً. هنا تظهر سلة مهملات نحاسية هناك يبين تقويم على الحائط.

هنا صورة عائلةٍ، علبة مشابك للأوراق، محبرة، قلم حبر. هناك آلة كاتبة، سترة مطوية موضوعة على كرسي.

مع مرور الزمن تبزغ رفوف الكتب التي لا يخلو منها مكان من ضباب الليل العالق على الجدران. تحمل الرفوف دفاتر براءات اختراعات. تتعلق إحدى البراءات

بآلات حفر مسنّناتها محنية بطريقة تقلّل الاحتكاك. تقترح أخرى محولاً كهربائياً يحمل فولطاً متواصلاً حين يتنوع تزويد الطاقة.

تصف براءة إختراع أخرى آلة كاتبة بلوح طباعة منخفض السرعة يزيل الضجة. إنها غرفة مليئة بالأفكار العملية.

في الخارج تتوهّج جبال الألب تحت الشمس. الوقت أواخر حزيران. مراكبيّ في نهر آري يفك قاربه الصغير ويندفع تاركاً التيار يحمله إلى شارع غيربرن حيث سينقل تفاحه الصيفي وثمار العلّيق[1]. يصل الخباز إلى مخبزه في السوق، يشعل فرنه الفحميّ ويباشر خلط الطحين والخميرة. يتعانق عاشقان على جسر «نيديك» ويحدّقان بتمعّن إلى الأسفل. يقف رجل على شرفة منزله في «شيفلاوبي» ويدرس السماء القرنفلية. تسير امرأة استحوذ عليها الأرق ببطء في شارع كرام، تحدّق إلى جميع الأروقة المقنطرة وتقرأ الملصقات في الضوء الخافت.

---

[1] أو التوت.

في المكتب الطويل الضيِّق الذي يقع في «شارع شبايشا» في الغرفة المليئة بالأفكار العملية ما يزال موظف براءات الإختراعات الشاب جالساً على كرسيه ورأسه على المكتب: في الأشهر العديدة الماضية ومنذ منتصف نيسان حلم أحلاماً كثيرة عن الزمن. هيمنت أحلامه على بحثه. أنهكته أحلامه، استنفذته بحيث أنه لا يستطيع أحياناً أن يميِّز بين نومه ويقظته. لكن عملية الحلم انتهت. ومن بين طبائع الزمن الكثيرة الممكنة المتخيّلة في ليال كثيرةٍ أيضاً، تبدو إحداهن مغرية. لا يعني هذا أن الأخرى مستحيلة. يمكن أن توجد الأخرى في عوالم أخرى.

يتحرك الشاب على كرسيه منتظراً مجيء ضاربة الآلة الكاتبة ويدندن بصوت منخفض ألحاناً من سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

14 نيسان 1905

افترضْ أن الزمن دائـرة تكـرّر نفسـها، عندئـذ يكـرر العالم نفسه بدقةٍ وبلا نهاية.

لا يعـرف البشـر في معظـم الحـالات أنهـم سـيكررون حيواتهم. لا يعرف التجار أنهم سيعقدون الصفقة نفسـها مرة بعد أخرى. يجهل السياسيون أنهم سيصيحون عـن نفس المنصة عدداً لا نهـائياً من المـرات في دورات الزمـن. يسمع الوالدان ضحكة طفلهما بولع وكأنهما لن يسـمعاها مرة ثانية. العشاق الذيـن يمارسـون الجنـس للمـرة الأولى

يتعـرّون بخجـل ويندهشـون مـن منظـر الفخـــذ الريّـــان والحلمة الهشّة. كيف سيعرفون أن كل نظرةٍ سرِّية، كل لمسة، سوف تتكرر ثانية وثانية وثانيــة كمـا حـدث مـن قبل؟

وكذلك هو الأمر في السوق. كيف يعــرف البقـالون أن كل كنزة يدويّــة الصنـع ،كـل منديـل مطـرز، كـل حبـة شـوكولاته، كـل سـاعة يـد وبوصلـة معقـدة ســتعود إلى دكاكينهم؟، يعود البقالون إلى عائلاتهم بعد الغـروب أو يشربون البيرة في الحانات وينادون بمرح الأصدقاء الذيـن في الأزقة المقنطرة، يداعبون كل لحظة وكأنهـا زمـرّدة في إيداع مؤقت. كيف يعرفـون أن لا شـيء مؤقتـاً، أن كـل شيء سيحدث مرة ثانيـة؟ لا شـيء يعـرف أنـه سيعود إلى حيـث بـدأ سـوى نملـةٍ تزحـف علـى حافـة ثريـا كريستالية.

في المستشـفى الـذي في شـارع غـيربرن تـــودع امـــرأة زوجها الذي يستلقي في الفراش ويحدجها بنظرة فارغـة. انتشر سـرطانه في الشـهرين الأخـيرين مـن حنجرتـه إلى كبده وبنكرياسه ودماغـه. يجلـس طفـلاه اليافعـان علـى كرسـي واحـد في زاويـة الغرفـة خـائفين مـن النظـــر إلى

والدهما، إلى خديه الغائصين والجلد الذاوي لرجل عجوز. تقترب المرأة من الفراش وتقبّل زوجها بنعومة على جبهته. تهمس مودعة ثم تغادر بسرعة مع الولدين. إنها متأكدة أنها كانت القبلة الأخيرة. كيف تعرف أن الزمن سيبدأ ثانية أنها ستولد ثانية وستدرس مرة أخرى في «الجيمنازيو» وتعرض لوحاتها في صالة في «زيوريخ» وستلتقي ثانية بزوجها في مكتبةٍ صغيرة في «فرايبورغ» وستبحر معه ثانية في بحيرة «زن» في يوم من أيام تموز الدافئة وأنها ستنجب ثانية وأن زوجها سيعمل ثانية ثماني سنوات في مجال الأدوية ويرجع إلى المنزل في أحد المساءات بكتلة في حنجرته، سيتقيأ ثانية ويهزل وينتهي في هذا المستشفى، في هذه الغرفة، هذا الفراش، هذه اللحظة. كيف تعرف؟

في العالم الذي يكون فيه الزمن دائرة ستتكرر كل مصافحةٍ ، كل قبلة، كل ولادة وكل كلمة. وهكذا أيضاً كل لحظة ينهي فيها صديقان صداقتهما، كل مرة تتفكك فيها أسرة بسبب النقود، كل ملاحظة فاجرة في خصومة بين الزوجين، كل فرصة ضاعت بسبب غيرة رئيس، كل وَعْدٍ لم يُنجز.

وتماماً كما ستتكرر جميع الأشياء في المستقبل، فإن جميع الأشياء التي تحدث الآن حدثت مليون مرة من قبل. قلّة ما من البشر في كل بلدة، تدرك بغموض في أحلامها أن كل شيء حصل في الماضي. أولئك هم البشر ذوو الحياة الشقية، يشعرون أن خطل محاكماتهم وأفعالهم الخاطئة وحظهم السيء كل هذا حدث في حلقة الزمن السابقة.

يصارع أولئك المواطنون الملعونون أغطية أسرتهم في منتصف الليل غير قادرين على النوم مرّوعين من معرفة أنهم لا يقدرون على تغيير فعل واحد، إيماءة واحدة. ستتكرر أخطاؤهم في هذه الحياة كما في الحياة التي سبقتها. وهؤلاء، ذوو الحظ السيء المضاعف، هم الذين يقدمون الإشارة الأولى على أن الزمن دائرة. ذلك أنه في كل بلدة، في وقت متأخر من الليل، تمتلئ الشوارع والشرفات الخالية بأنينهم.

16 نيسان 1905

في هذا العالم الزمن كمثل دفقة ماء، يزيحه أحياناً بعض الحطام، نسيم عابر. بين فينة وأخرى يسبب إزعاج كوني ما انحراف جدول من الزمن عن التيار الرئيسي ليحدث اتصالاً مع التيار الخلفي. حين يحدث هذا فإن الطيور والتربة والبشر العالقين في الرافد المتفرع يجدون أنفسهم فجأة محمولين إلى الماضي.

من السهل تحديد البشر الذين نُقلوا إلى الوراء في الزمن. يرتدون ملابس سوداء غير قابلة للتمييز ويسيرون

على أصابع أقدامهم محاولين ألا يصدروا صوتاً واحداً، ألا يحنوا عشبة واحدة. ذلك لأنهم يخافون من أن أي تغيّرٍ يحدثونه في الماضي يمكن أن ينتج عواقب وخيمة جداً على المستقبل.

وعلى سبيل المثال، تتوارى مسافرة في ظلال الرواق المقنطر في شارع كرام وهذا مكان غريب لمسافرة من المستقبل، لكنها هناك. يعبر المشاة، يحدقون ويتابعون السير. تنزوي في زاوية ثم تزحف بسرعة عبر الشارع وتأوي إلى بقعة أخرى مظلمة. إنها مرعوبة من أنها ستثير الغبار، كما يشق شخص اسمه «بيتر كلوسن» طريقه إلى الصيدلية في شارع شبيتال في بعد ظهر ١٦ نيسان من عام ١٩٠٥. كلوسن شخص مسرف في الأناقة ويكره أن تتسخ ثيابه. إذا لطخ الغبار ثيابه سيتوقف وينفضها بهمة بغض النظر عن المواعيد المنتظرة. إذا تأخر «كلوسن»، يمكن ألا يشتري المرهم لزوجته التي كانت تشكو من ألم ساقها طوال أسابيع. في تلك الحالة يمكن أن تقرر زوجة كلوسن وهي في مزاج سيء ألا تنفذ الرحلة إلى بحيرة جنيف. وإذا لم تذهب إلى بحيرة جنيف في ٢٣ حزيران ١٩٠٥ لن تلتقي بامرأة

تدعى كاثرين دي إباني وهي تسير على جدار الشاطئ الشرقي ولن تعرّف المدموزيل دي إيباني على ولدها ريتشارد. وبالتالي لن يتزوج ريتشارد وكاثرين في ١٧ كانون الأول ١٩٠٨ ولن ينجبا فردريك في ٨ تموز ١٩١٢. ولن يصبح فردريك كلوسن أباً لهانز كلوسن في ٢٢ آب ١٩٣٨ وبدون هانز كلوسن لن يحصل الإتحاد الأوربي لعام ١٩٧٩.

المرأة التي جاءت من المستقبل ورميتْ دون تحذير في هذا الزمان وهذا المكان وتحاول الآن أن تختفي عن الأنظار في بقعتها المظلمة في شارع كرام تعرف قصة كلوسن وألف قصة أخرى تنتظر الكشف، معتمدة على ولادات الأطفال، حركة البشر في الشوارع، غناء الطيور في لحظات معينة، الموقع الدقيق للكراسي، الريح. تلطأ في الظلال ولا تستجيب لتحديقات البشر. تلطأ وتنتظر جدول الزمن ليحملها ويعيدها إلى زمنها الخاص.

وحين يجب أن يتحدث مسافرٌ من المستقبل، فإنه لا يتحدث بل يُوَهْوِهُ. يهمس أصواتاً معذّبة، يتألم لأنه إذا أحدث أدنى تبديل في أي شيء من المحتمل أن يدمر المستقبل. في الوقت نفسه، يكون مجبراً على أن يشهد

أحداثاً دون أن يكون جزءاً منها، دون أن يغيّرها. يحسد البشر الذين يعيشون في زمنهم الخاص، الذين يستطيعون أن يتصرفوا وفق مشيئتهم غافلين عن المستقبل جاهلين تأثيرات أعمالهم. لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً. إنه غاز هامد، شبح، ورقة بلا روح. إنه منفيُّ الزمن.

يمكن أن يُعثر على هؤلاء البشر البؤساء القادمين من المستقبل في كل قرية وكل بلدة مختبئين تحت أفاريز الأبنية، في الأقبية، تحت الجسور، في الحقول المهجورة. ولا يُسْألون عن الحوادث القادمة والزيجات المستقبلية والولادات والتمويلات والاختراعات والفوائد التي ستجنى. وبدلاً من ذلك يُتركون وحيدين ويثيرون الشفقة.

19 نيسان 1905

إنه صباح بارد من صباحات تشرين الثـاني. سـقطت الثلوج الأولى. يقف رجل يرتدي معطفاً جلدياً على شرفة طابقه الرابع في شارع كرام المطلة على نافورة «تسـيرغنا» وعلى الشارع الأبيض في الأسفل. يستطيع المـرء أن يـرى في جهـة الشـرق الصومعـة الهشـة لكاتدرائيـة القديـس فنسنت، وفي جهة الغرب سقف بـرج «تسوتغلوكاتورم». لكـن الرجـل لا ينظـر شـرقاً أو غربـاً، بـل يحـدق نحـو الأسفل إلى قبعة حمراء صغيرة متروكـة في الثلـج ويفكـر:

أعليه أن يذهب إلى منزل المرأة في «فرايبورغ»؟ تمسك يداه الدرابزون المعدني وتفلتانه ثم تمسكانه ثانية؟ هل يجب أن يزورها؟ أيجب أن يزورها؟

يقرر ألا يشاهدها مرة أخرى. إنها لعوب وظنون وبوسعها أن تجعل حياته بائسة. ربما لن تكون مهتمة به على أية حال. وهكذا يقرر ألا يراها ثانية وينصرف إلى مصادقة الرجال. يعمل بجد في مجال الأدوية حيث نادراً ما يلاحظ وجود مساعدة المدير. يذهب إلى صالة احتساء البيرة في شارع خوكر في أوقات المساء مع أصدقائه ويشرب البيرة، يتعلم صنع الفونديو[1]، ثم يلتقي بعد ثلاث سنوات بامرأة أخرى في محل لبيع الألبسة في نيوشاتل. إنها ظريفة. تمارس معه الحب ببطء شديد شديد طوال شهور. بعد عام، تأتي لتعيش معه في «بيرن». يعيشان حياة هادئة، يتنزهان على طول نهر «آري»، يصادقان بعضهما، يشيخان راضيين.

---

[1] الفونديو fondue: لون من الطعام السويسري يصنع من الجبن الذائب في النبيذ الأبيض وينقع فيه فتات الخبز ـ المغني الأكبر.

في العالم الثاني يقرر الرجل الذي يرتدي معطفاً جلدياً أنه يجب أن يشاهد امرأة «فرايبورغ» مرة أخرى. لا يكاد يعرفها، يمكن أن تكون لعوب ومتقلبة. لكن، تلك الطريقة التي يصبح فيها وجهها ناعماً حين تبتسم، تلك الضحكة، ذلك الاستخدام الذكي للكلمات، نعم، يجب أن يشاهدها مرة ثانية. يذهب إلى منزلها في فرايبورغ، يجلس معها على الأريكة، يشعر بعد لحظات أن قلبه يخفق، يضعف من مشهد بياض ذراعيها. يمارسان الحب بصخب وشوق. تقنعه بالانتقال إلى فرايبورغ. يترك عمله في «بيرن» ويوظّف في مكتب فرايبورغ البريدي. يشتعل حباً بها. يجيء إلى المنزل ظهراً كل يوم. يأكلان، يمارسان الحب، يتجادلان، تشكو أنها تريد مزيداً من النقود، يتوسل إليها، تقذفه بالآنية، يمارسان الجنس مرة أخرى، يعود إلى مكتب البريد. تهدد بأنها ستتركه لكنها لا تفعل ذلك. يعيش من أجلها وهو سعيد بكمده.

في العالم الثالث يقرر أيضاً أنه يجب أن يشاهدها مرة أخرى. لا يكاد يعرفها، يمكن أن تكون لعوب ومتقلبة. لكن تلك الابتسامة، تلك الضحكة، ذلك الذكاء في

استخدام الكلمات. نعم، يجب أن يشاهدها مرة ثانية. يذهب إلى منزلها في «فرايبورغ»، يلتقي بها عند الباب، يتناول معها الشاي حول طاولة المطبخ. يتحدثان عن عملها في المكتبة وعن عمله في مجال الأدوية. تقول بعد ساعة إنها يجب أن تغادر لتساعد صديقاً، تودعه، يتصافحان. يسافر قاطعاً مسافة الثلاثين كيلومتراً إلى بيرن، يشعر بالفراغ أثناء ركوب القطار إلى منزله، يصعد إلى شقته في الطابق الرابع ويحدق نحو الأسفل، إلى القبعة الحمراء المتروكة في الثلج.

إن سلاسل الأحداث الثلاثة هذه تحدث بالفعل، متزامنة. ذلك أن الزمن يمتلك ثلاثة أبعاد في هذا العالم مثل المكان. تماماً كما يمكن أن يتحرك شيء في ثلاث جهات عمودية تتواشج مع الأفقي والعمودي والطولي وهكذا يمكن أن يشارك الشيء في ثلاثة مستقبلات عمودية. يتحرك كل مستقبل في جهة مختلفة من الزمن، وكل من هذه المستقبلات حقيقي. وحين يصل الرجل إلى حافة أي قرار لزيارة المرأة التي في فرايبورغ أو لشراء معطف جديد، ينقسم العالم إلى ثلاثة عوالم كل منها يحتوي البشر نفسهم ولكن بأقدار

مختلفة لأولئك البشر. مع مرور الزمن ثمة عدد لانهائي من العوالم.

يستخف البعض بالقرارات مجادلين أن جميع القرارات الممكنة ستتخذ. في عالم كهذا، كيف يستطيع المرء أن يكون مسؤولاً عن أفعاله؟ يعتقد آخرون أن كل قرار يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار ويُلتَزم به وأنه بدون التزام يحل العماء. إن بشراً كهؤلاء يرضون أن يعيشوا في عوالم متناقضة طالما أنهم يعرفون سبب كل منها.

24 نيسان 1905

ثمة زمنان في هذا العالم: الزمن الآلي والزمن الجسدي. الأول صلب ومعدني كبندول حديدي ضخم يتحرك جيئةً وذهاباً. الثاني يتقلب ويتعرج كسمكة في خليج. الأول لا يلين، محدد مسبقاً. الثاني يتخذ قراره وهو يمضي.

يقتنع كثيرون أن الزمن الآلي غير موجود. حين يمرون قرب الساعة العملاقة في شارع كرام لا يشاهدونها ولا يسمعون دقاتها وهم يرسلون الطرود في شارع بوست

أو يطوفون بين الأزهار في «روزنكارتن». يلبسون ساعات حول أرساغهم كزينة أو كتجمل لأولئك الذين يقدمون الساعات اليدوية كهدايا. لا يضعون ساعات جدارية في منازلهم. بدلاً من ذلك، يصغون لدقات قلوبهم، يشعرون بإيقاعات أمزجتهم ورغباتهم. يأكل بشر كهؤلاء حين يجوعون، يذهبون إلى أعمالهم في المتجر أو الصيدلية حين يستيقظون من نومهم، يمارسون الحب طوال ساعات النهار. يسخر بشر كهؤلاء من فكرة الزمن الآلي. يعرفون أن الزمن يتحرك في نوبات وقفزات، يعرفون أن الزمن يصارع نحو الأمام حاملاً ثقلاً على ظهره حين ينقلون طفلاً مصاباً إلى المستشفى أو يتحملون تحديقة جار أسيء إليه. يعرفون أيضاً أن الزمن يندفع مسرعاً عبر حقول الرؤية حين يستمتعون بتناول الطعام مع الأصدقاء أو يتلقون المديح أو يكذبون بين ذراعي عشيقة سرية.

ثم هناك أولئك الذين يعتقدون أن أجسادهم لا توجد، يعيشون وفق الزمن الآلي، ينهضون في السابعة صباحاً. يتناولون غذاءهم ظهراً وعشاءهم في السادسة. يصلون إلى مواعيدهم في الوقت المحدد وبدقة الساعة.

يمارسون الجنس بين الثامنة والعاشرة ليلاً، يعملون أربعين ساعة في الأسبوع، يقرأون صحيفة الأحد يوم الأحد، يلعبون الشطرنج مساء الثلاثاء. حين تصدر معداتهم أصواتاً ينظرون إلى ساعاتهم ليتبينوا إذا حان وقت الطعام، حين ينسون أنفسهم في حفلة موسيقية ينظرون إلى الساعة التي فوق خشبة المسرح ليعرفوا متى يحين وقت العودة إلى المنزل. يعرفون أن الجسد ليس شيئاً ينتمي إلى السحر الوحشي بل مجموعة من المواد الكيماوية والأنسجة والدوافع العصبية ويعرفون أن الأفكار ليست أكثر من اندفاعات كهربائية في الدماغ والإثارة الجنسية ليست أكثر من تدفق المواد الكيماوية إلى نهايات عصبية معينة والحزن ليس أكثر من حمض قليل يثبت في المخيخ. باختصار، الجسد آلة خاضعة لقوانين الكهرباء والميكانيكا نفسها كالإلكترون أو الساعة. هكذا، يجب أن يخاطب الجسد بلغة الفيزياء، وإذا تحدث الجسد فإن هذا حديث عتلات وقوى كثيرة فقط. الجسد شيء يجب أن يؤمر، أن لا يطاع.

إذا سار المرء ليلاً على طول نهر «آري» يشاهد دليلاً على وجود عالمين في عالم واحد. يحدد مراكبيّ موقعه في

الظلام من خلال إحصاء الثواني المندفعة في تيار الماء. ثانية، ثلاثة أمتار. ثانيتان، ستة أمتار. ثلاث ثوان، تسعة أمتار. يخترق صوته الظلمة بمقاطع واضحة ومحددة. تحت منصب مصباح على جسر «نيديك» يقف شقيقان لم يشاهدا بعضهما لمدة عام ويشربان ويضحكان. يدق جرس كاتدرائية القديس فنسنت عشر مرات. في ثوان، تنطفئ أضواء الشقق التي تصطف في «شيفلاوبي» في استجابة آلية تامة مثل استنتاجات هندسة إقليدس. عاشقان يستلقيان على ضفة النهر ينظران إلى الأعلى بكسل بعد أن استيقظا من نوم لا زمني على الأصوات البعيدة لجرس الكنيسة، مندهشين من أن الليل قد خيم.

حيث يلتقي الزمنان يحل اليأس. حيث ينفصل الزمنان تحل القناعة. ذلك أن محامياً، ممرضة، خبازاً، يستطيعون أن يصنعوا عالماً بشكل معجز في أي من الزمنين، لكنهم لا يستطيعون ذلك في كلا الزمنين. إن كل زمن منهما هو حقيقي إلا أن الحقائق ليست نفسها.

26 نيسان 1905

من الواضح بسرعة في هذا العالم أن هناك شيئاً غريباً: لا تمكن رؤية منازل في الأودية والسهول. يعيش الجميع في الجبال.

في وقت ما في الماضي اكتشف العلماء أن الزمن يتدفق ببطء أكبر كلما ابتعد عن مركز الأرض. التأثير ضئيل جداً لكنه يمكن أن يقاس بأدوات حساسيتها مفرطة. حالما عرفت الظاهرة انتقل بعض البشر المتلهفين للبقاء شباناً إلى الجبال. بنيت جميع المنازل على

«دوم» وعلـى «مـاترهورن» و«مونـت روزا» وعلـى أراض أخرى مرتفعة. من المستحيل بيع أحياء سكنية في مكـان آخر.

لم يرضَ كثيرون أن يبنوا منازلهم ببساطة على جبل. لكي يحصلوا على التأثير الأكبر بنوا منازلهم على دعائم. عششت منازل كهذه على قمم الجبال في جميع أنحاء العالم، وتبدو من بعيد كسرب طيور سمينة تقف على أرجل طويلة ونحيلة. البشر الذين يتلهفون ليعيشوا فترة أطول شيدوا منازلهم على الدعائم الأعلى. وفي الحقيقة، ترتفع بعض المنازل نصف ميل على سيقانها الخشبية النحيلة. أصبح الإرتفاع مرتبة. حين يتوجب على شخص أن ينظر من نافذة مطبخه إلى الأعلى ليشاهد جاراً يظن أن جاره لن يصاب بتصلب المفاصل بالسرعة التي سيصاب هو بها، لن يفقد شعره حتى وقت لاحق، لن يصاب بالتجاعيد حتى وقت لاحق، لن يفقد الباعث على الرومانس باكراً مثله. كذلك يميل الشخص الذي ينظر نحو الأسفل إلى منزل آخر إلى اعتبار سكانه منهكين وضعفاء وقصيري النظر. يتباهى البعض أنهم عاشوا حياتهم كلها في الأعلى، أنهم ولدوا في أعلى منزل

على أعلى قمة جبل ولم يهبطوا أبداً. يحتفلون بشبابهم في المرايا ويسيرون عراة على شرفاتهم.

بين فينة وأخرى يجبر عمل ما ملح البشر على الهبوط من منازلهم فيفعلون ذلك بسرعة وينزلون بعجلة على سلالمهم إلى الأرض ويركضون إلى سلم آخر، ثم إلى الوادي في الأسفل، يكملون صفقاتهم ويعودون بأقصى سرعة إلى منازلهم أو إلى أماكن أخرى مرتفعة. يعرفون أنه مع كل خطوة إلى الأسفل تزداد سرعة مرور الزمن ويهرمون قليلاً. البشر الذين على مستوى الأرض لا يجلسون أبداً. يركضون حاملين محفظاتهم أو مشترياتهم.

لم تعد تأبه قلة من المقيمين في كل مدينة إذا تقدمت في السن بضع ثوان أكثر من جيرانها. تهبط هذه الأرواح المغامرة إلى العالم السفلي لعدة أيام في المرة الواحدة. تسترخي في ظل الأشجار التي تنمو في الوادي، تسبح بمتعة وحرية في البحيرات التي تقع في ارتفاعات دافئة، تطوف على مستوى الأرض.

نادراً ما تنظر إلى ساعاتها ولا تستطيع أن تقول إن كان اليوم هو الإثنين أو الخميس. حين يندفع الآخرون قربها بسرعة ويسخرون، تبتسم فقط.

مع مرور الزمن، ينسى البشر لماذا المكان الأعلى هو الأفضل. مع ذلك، يواصلون العيش على الجبال ليتجنبوا المناطق الغائصة قدر استطاعتهم، ليعلموا أبناءهم أن يصرفوا الأطفال الآخرين عن الارتفاعات المنخفضة. يتعودون على برد الجبال ويستمتعون بعدم الراحة كجزء من تربيتهم، حتى أنهم أقنعوا أنفسهم بأن الهواء الرقيق مفيد لأجسادهم، ومتبعين ذلك المنطق مارسوا حميات من أجل التوفير ورفضوا كل شيء إلا الطعام القليل[1]. ومع مرور الوقت، أصبح البشر رقيقين كالهواء، عجافاً وكهولاً قبل أوانهم.

---

[1] gossamer food: واهٍ، رقيق.

28 نيسان 1905

ليس بوسع المرء أن يتنزه في جادة أو يتحدث مع صديق أو يدخل بناء أو يتجول تحت أقواس رواق مقنطر قديم مصنوعة من الحجر الرملي دون أن يلتقي بأداة زمنية. الزمن مرئي في جميع الأمكنة. أبراج الساعات الكبيرة، ساعات اليد وأجراس الكنائس تقسم الأعوام إلى شهور والشهور إلى أيام والأيام إلى ساعات والساعات إلى ثوان وكل زيادة في الوقت تتقدم بعد الأخرى في تعاقب تام. ووراء أية ساعة كبيرة معينة ثمة منصة زمنية شاسعة ترسي قانون الزمن للجميع على السواء.

في هذا العالم الثانية هي ثانية هي ثانية. يخطو الزمن إلى الأمام بانتظام مضبوط وبالسرعة المنتظمة ذاتها في كل زاوية من المكان. الزمن حاكم لا نهائي. الزمن مطلق.

يجتمع كلّ بعد ظهر سكان بلدة بيرن في الطرف الغربي لشارع كرام. هناك في الثالثة إلا ربعاً يدفع برجُ «تسوتغلوكاتورم» الجزية للزمن. عالياً على البرج يرقص المهرجون، تصيح الديكة، تعزف الدببة على الناي وتقرع الطبل، يوقّت الأصوات والحركات دوران المسننات، التي بدورها، يلهمها اكتمال الزمن. في الساعة الثالثة تماماً يدق جرس ضخم ثلاث مرات، يتفحص البشر ساعاتهم، ثم يعودون إلى مكاتبهم في «شارع شبايشا» وحوانيتهم في «السوق» ومزارعهم التي تقع وراء الجسور التي على نهر «آري».

الذين يمتلكون إيماناً دينياً يعتبرون الزمن دليلاً على وجود الله. ذلك أنه من المؤكد أن لا شيء يُخلَق تاماً دون خالق. لا شيء يمكن أن يكون كونياً دون أن يكون مقدساً. وجميع المطلقات هي جزء من المطلق الواحد. وأينما وجدت المطلقات يوجد الزمن. وضع فلاسفة

الأخلاق الزمن في مركز إيمانهم. الزمن هو المرجع الذي يحكم من خلاله على جميع الأفعال. الزمن هو الوضوح لرؤية الصواب والخطأ.

في حانوت لبيع الكتّان في «شارع أمتهاوس» تتحدث امرأةٍ مع صديقتها. فقدت وظيفتها للتو. اشتغلت عشرين عاماً موظفة في «مجلس الشعب» تسجل المجادلات. ساعدت أسرتها. وسرحت الآن وهي تعيل فتاة ما تزال في المدرسة وتعيش مع زوجٍ يمضي كل صباح ساعتين في المرحاض. دخلت مديرتها في صباح ما، وهي سيدة غريبة الأطوار، مزيّنة بإفراط، وطلبت منها أن تخلي مكتبها في اليوم التالي. تصغي الصديقة التي في الحانوت بهدوء وتطوي بأناقة غطاء الطاولة الذي اشترته، تنزع نسالة الكتان عن كنزة المرأة التي فقدت وظيفتها. تتفق الصديقتان على اللقاء لتناول الشاي في الساعة العاشرة من اليوم التالي. الساعة العاشرة، بعد سبع عشرة ساعة وخمس وثلاثين دقيقة من هذه اللحظة. تبتسم المرأة التي فقدت وظيفتها للمرة الأولى طوال أيام، تتخيل في ذهنها الساعة التي على حائط مطبخها تحدد كل ثانية بين الآن والساعة العاشرة غداً، دون انقطاع، دون استشارة.

وثمة ساعة مشابهة في منزل صديقتها متزامنة معها. غداً، في العاشرة إلا ثلثاً، سترتدي المرأة لفاعها وقفازيها ومعطفها وتسير في «شيفلاوبي» عابرة جسر «نيديك» متوجهة إلى «المقهى» في شارع بوست. في العاشرة إلا ربعاً، ستغادر صديقتها منزلها في شارع تسويغاهوس وتشق طريقها إلى المكان نفسه.

ستتقابلان في الساعة العاشرة. ستلتقيان في العاشرة.

إن عالماً يكون فيه الزمن مطلقاً هو عالم عزاء. ذلك أنه بينما تكون حركات البشر غير قابلة للرصد، تكون حركة الزمن قابلة لذلك. وبينما يمكن أن يُشك بالبشر، لا يمكن الشك بالزمن. وبينما يشرد البشر ينزلق الزمن إلى الأمام دون أن ينظر إلى الخلف. في المقاهي، في الأبنية الحكومية، في القوارب التي في بحيرة جنيف، ينظر البشر إلى ساعاتهم اليدوية ويلوذون بالزمن. تعرف كل امرأة أنه في مكان ما تكون مسجلة لحظة ولادتها واللحظة التي قامت فيها بالخطوة الأولى، ولحظة هواها الأول واللحظة التي ودعت فيها والديها.

3 أيار 1905

تخيّل عالماً تحكم فيه العشوائية السبب والنتيجة. تارة يسبق السبب النتيجة وطوراً تأتي النتيجة قبل السبب، أو ربما يكمن السبب دائماً في الماضي بينما تكمن النتيجة في المستقبل، بينما يتشابك الماضي والمستقبل.

تطل مصطبة بندستراس على منظر مدهش: نهر آري في الأسفل وجبال الألب في الأعلى. يقفُ هناك رجل في هذه اللحظة، يفرغ، سارح الذهن، جيبيه ويبكي. تخلى عنه أصدقاؤه دون سبب. لم يعد يتصل به أحد، لا أحد

يقابله على العشاء أو لشرب البيرة في الحانة، لا أحد يدعوه إلى منزله. كان طوال عشرين عاماً الصديق المثالي لأصدقائه. كان كريماً، مهتماً، لبقاً، عطوفاً. ما الذي حدث؟ بعد أسبوع من هذه اللحظة يتصرف الرجل نفسه على المصطبة بطريقة سخيفة، يهين الجميع، يرتدي ثياباً تفوح منها الروائح، يبخل بماله، لا يسمح لأحد بالمجيء إلى شقته في «لوبنستراس». ما الذي كان السبب وما الذي كان النتيجة؟ أيهما الماضي وأيهما المستقبل؟

صدّق المجلس في زيوريخ مؤخراً على قوانين صارمة. يجب ألا تباع المسدسات للعامة. يجب أن تفتش البنوك والمتاجر بحثاً عن المهربات. يجب أن يفتش جميع الزوار سواء الذين يدخلون زيوريخ بالزورق عبر نهر «ليمات» أو بالقطار على خط «سيلينو» بحثاً عن البضائع المهربة. تمت مضاعفة عدد أفراد الشرطة المدنية. بعد شهر من تشديد الإجراءات حدثت أسوأ الجرائم في تاريخ «زيوريخ». قُتل البشر في وضح النهار في الوينبلاتز، سرقت اللوحات من متحف كنست، شرب الكحول على مقاعد «منسترهوف». أليست هذه الأفعال

الإجرامية موضوعة في غيرٍ موضعها في الزمن؟ أو ربما كانت القوانين الجديدة فعلاً لا ردة فعل؟

تجلس امرأة شابة قرب نافورة في «بوتانشرغارتن»، تجيء إلى هنا كل أحد لتستنشق أريج البنفسج، وردة المسك، أزهار العصيفرة القرنفلية الملتفة.

فجأة يحلق قلبها، تحمر خجلاً، تخطو بلهفة، تصبح سعيدة دون سبب. بعد أيام تقابل شاباً وتقع في الحب. أليس الحدثان متصلين؟ لكن وفق أي اتصال غريب، وفق أي اعوجاج في الزمن، وفق أي منطق معكوس؟

في هذا العالم اللاسببي، العلماء عاجزون. تصبح تنبؤاتهم لَغْواً، تصبح معادلاتهم تبريرات، منطقهم لا منطقاً. يصبح العلماء متهورين ويغمغمون مثل مقامرين لا يستطيعون التوقف عن المراهنة. العلماء مهرجون ليس لأنهم عقلانيون، بل لأن الكون غير عقلاني، أو ربما ليس لأن الكون غير عقلاني بل لأنهم عقلانيون. من الذي يستطيع أن يحذر في عالم لا سببي؟

الفنانون فرحـون في هـذا العـالم. الغمـوض هـو حيـاة لوحاتهم وموسـيقاهم ورواياتهم. يسـتمتعون بـأحداث لم تكتنه بعد، بحوادث غير مشروحة، باستعادة الماضي.

تعلم معظم البشر كيف يعيشون في اللحظـة. ويحتـدم الجدل حول أنه إذا أحدث الماضي تأثيراً غير مؤكد على المستقبل فإن الأعمال الحالية يجب ألا تقدر أهميتها مـن أجل نتيجتها. بالأحرى، كل فعل هو جزيرة في الزمـن، ويجب أن يحكم عليه بذاته. تريـح عائلـة عمـاً يحتضـرُ ليس بسبب الميراث، بل لأنه محبوب في تلـك اللحظـة. يتم استئجار الموظفين ليس بسبب مجمل أعمـالهم ولكـن بسبب حسـهم الجيـد في المقـابلات. الموظفـون الذيـن يدوسهم مدراؤهم يردون عند كل إهانة دون خـوف علـى مستقبلهم. إنه عالم اندفاع، عالم إخلاص، عالم تتحدث فيه الكلمة المنطوقة مع تلـك اللحظـة فقـط، تمتلـك كـل نظرة معنـى واحـداً فقـط، لا تملـك كـل لمسةٍ ماضيـاً أو مستقبلاً، وكل قبلة هي قبلة مباشرة.

4 أيار 1905

إنه المساء. يجلس أربعة من الإنكليز والسويسريين إلى طاولتهم المألوفة في غرفة الطعام في فندق «سان موريـزان» في «سينت موريتز» يلتقون هنا كل عام في شهر حزيران، ليتحدثوا ويستـحموا. الرجـلان أنيقـان يرتديـان ربطـتي عنـق سـوداوين وحزامـين، المرأتـان جميلتـان وترتديـان فسـتاني سـهرة. يسـير النـادل عـبر الأرضيـة الخشـبية الرائعة ويتلقى طلباتهم.

تقول المرأة التي تزين شعرها بشريطة قماش موشّى: «أظن أن الطقس سيكون معتدلاً غداً. سيكون هذا مريحاً».

يهز الآخرون رؤوسهم وتتابع كلامها: «تبدو الحمامات أكثر إمتاعاً حين يكون الجو مشمساً. رغم أن هذا يجب ألا يهم كما أعتقد».

يقول الأميرال: (رُننيك لايتلي)[1] فاز بأربع نقاط مقابل نقطة واحدة في دبلن».

يغمز زوجته.

يقول الرجل الآخر: «سأراهن بخمس نقاط مقابل واحدة إذا راهنت».

تقطّع النساء أرغفة العشاء، تدهنها بالزبدة وتضع السكاكين على جانب صحون الزبدة. يثبت الرجال أعينهم على المدخل.

تقول المرأة التي تزين شعرها بشريطة قماشية موشاة: «أحب نسيج أغطية الطاولات».

---

(1) اسم حصان.

تأخذ منديلها تفتحه ثم تطويه مرة أخرى.

تقول المرأة الأخرى مبتسمة: «أنت ترددين هذا كل عام يا جوزفين».

يأتي العشاء. طلبوا الليلة سرطانات البحر، الهليون، شرائح لحم البقر والنبيذ الأبيض.

تقول المرأة التي تزين شعرها بشريطة قماشية موشاة وهي تنظر إلى زوجها:

«كيف هو صحنك؟»

ـ زيادة قليلة في البهارات كالأسبوع الماضي.

ـ وأنت أيها الأميرال كيف شرائحك؟

يقول الأميرال بسعادة: «لم يقلبوا أبداً جانباً من الشرائح».

يقول الرجل الآخر: ألم تلاحظ أنك ذهبت كثيراً إلى مخزن اللحوم. لم تنقص كيلوغراماً واحداً منذ العام الماضي أو ربما في الأعوام العشرة الأخيرة.

يقول الأميرال غامزاً زوجته: «ربما لا تستطيع أن تلاحظ، بيد أنها تستطيع».

تقول زوجة الأميرال: «يمكن أن أكون مخطئة، لكن يبدو أن الغرف أكثر تعرضاً للهواء البارد هذا العام».

يهز الآخرون رؤوسهم ويتابعون تناول سرطانات البحر وشرائح لحم البقر. تتابع كلامها: «دائماً أنام بشكل أفضل في الغرف الدافئة لكن إذا كانت معرضة للهواء البارد أستيقظ مصابة بالسعال».

تقول المرأة الأخرى: «ضعي الغطاء فوق رأسك».

تقول زوجة الأميرال نعم لكنها تبدو محتارة.

تكرر المرأة الأخرى: «ضعي رأسك تحت الشرشف عندئذ لا يزعجك الهواء البارد. يحدث هذا لي طوال الوقت في كريندلوالد. ثمة نافذة قرب سريري. أستطيع أن أتركها مفتوحة إذا غطيت أنفي. وهذا يترك الهواء البارد في الخارج».

تتحلحل المرأة التي تزين شعرها بشريطة موشاة على كرسيها، تنزل ساقاً عن أخرى تحت الطاولة.

تأتي القهوة. يذهب الرجلان إلى غرفة التدخين والمرأتان إلى الأراجيح على السطح الكبير في الخارج.

يسأل الأميرال: «كيف حال المشاريع منذ العام الماضي؟

يقول الرجل الآخر وهو يحتسي البراندي: «لا تستطيع أن تشكو».

«والأولاد؟»

«كبروا عاماً»

في الرواق، تتأرجح المرآتان وتنظران في الليل. ويحدث الشيء نفسه في كل فندق ومنزل وبلدة، ذلك أن الزمن يمر لكن لا يحدث سوى القليل في هذا العالم. وتماماً كما يحدث القليل من عام لآخر يحدث القليل من شهر لآخر ومن يوم لآخر. وإذا كان الزمن ومرور الأحداث هما الشيء نفسه فهذا يعني أن الزمن لا يكاد يمر مطلقاً. وإذا لم يكن الزمن ومرور الأحداث هما الشيء نفسه، فهذا يعني أن البشر هم الذين لا يكادون يتحركون.

إذا لم يمتلك المرء طموحات في هذا العالم فإنه يعاني دون أن يعرف. وإذا امتلك المرء طموحات فإنه يعاني وهو يعرف، ولكن ببطء شديد.

فاصلة

يسير آينشتاين وبيسو ببطء في وقت متأخر من بعد الظهر. إنه وقت هادئ من أوقات النهار. البقالون ينزلون ظلات حوانيتهم ويخرجون دراجاتهم. تنادي أم ابنتها من شرفة طابق ثان لتجيء إلى المنزل وتحضّر العشاء.

كان آينشتاين يشرح لصديقه «بيسو» لماذا يريد أن يعرف الزمن. لكنه لا يقول شيئاً عن أحلامه. سيصلان حالاً إلى منزل «بيسو». أحياناً يبقى آينشتاين هناك أثناء

العشاء ويتوجب عندئذ على «ميليفا» أن تأتي لتحضره حاملة رضيعهما. يحدث هذا عادة حين يكون آينشتاين مهووساً بمشروع جديد كما هو الآن وطوال العشاء ينتر رجليه تحت الطاولة.

ليس آينشتاين رفيق عشاء جيد.

ينحني آينشتاين باتجاه بيسو الذي هو قصير أيضاً ويقول: أريد أن أفهم الزمن لأقترب من الواحد القديم. يهز بيسو رأسه. لكن ثمة مشاكل يشير إليها بيسو. ليس الواحد القديم مهتماً بالاقتراب من مخلوقاته سواء أكانت ذكية أم لا. والمشكلة الأخرى هي أن هذا المشروع الزمني يمكن أن يكون كبيراً جداً على شخص يبلغ ٢٦ عاماً من العمر.

من ناحية أخرى، يعتقد «بيسو» أن صديقه يمكن أن يكون قادراً على أي شيء. ذلك أن آينشتاين أكمل خلال هذا العام أطروحته في الدكتوراه، أنهى بحثاً عن الفوتونات وآخر عن الحركة البراونية. ولقد بدأ هذا المشروع الحالي بالفعل كاستقصاء للكهرباء والمغناطيسية ويتطلب كما أعلن أينشتاين فجأة في أحد

الأيام إعادة فهم للزمن. «بيسو» محتار من طموح آينشتاين.

يترك «بيسو» آينشتاين وحيداً مع أفكاره لوهلة. يتساءل ما الذي طبخته «آنا» للعشاء وينظر عبر شارع جانبي إلى قارب فضي يلمع في نهر آري تحت شمس منخفضة. وبينما يسير الرجلان تتكتك خطواتهما بنعومة على الحجر الإسفلتي. عرفا بعضهما منذ أيام الدراسة في «زوريخ».

قال بيسو: «وصلتني رسالة من أخي الذي في روما. سيأتي لزيارتي لمدة شهر. تحبه «آنا» لأنه يطري شخصيتها دائما».

يبتسم آينشتاين سارح الذهن.

«لن أتمكن من مشاهدتك بعد العمل حين يأتي أخي. هل ستكون على ما يرام؟»

يسأله آينشتاين: ماذا؟

يكرر بيسو: لن أقدر على رؤيتك كثيراً حين يجيء أخي. هل ستكون بخير وحدك؟

يجيبه آينشتاين: «أكيد لا تقلق من أجلي».

كان آينشتاين يعتمد على نفسه منذ أن تعرف إليه «بيسو». كانت عائلته تتنقل حين كان طفلاً. إنه متزوج مثل «بيسو» لكنه نادراً ما يذهب إلى أي مكان مع زوجته، حتى في المنزل يهرب من «ميليفا» في منتصف الليل ويدخل المطبخ ليدرس صفحات طويلة من المعادلات التي يريها في المكتب لبيسو في اليوم التالي.

يتفحص «بيسو» صديقه بفضول.

بالنسبة لشخص منطو على نفسه ومنعزل، يبدو ذلك الولع بالقرب غريباً.

9 أيار 1905

سينتهي العالم في ٢٦ أيلول ١٩٠٧. الجميع يعرفون هذا. وما يجري في بيرن يجري في جميع المدن والبلدات. قبل عام من النهاية تغلق المدارس أبوابها. لماذا الدراسة من أجل المستقبل حين يكون المستقبل قصيراً؟ يلعب الأطفال لعبة الغميضة في أروقة شارع كرام مسرورين من انتهاء الدروس إلى الأبد. يركضون في أرستراس ويرمون أحجاراً في النهر ويصرفون نقودهم لشراء النعناع المفلفل

وعرق السوس. يسمح لهم أولياء أمورهم أن يفعلوا أي شيء يرغبون به.

قبل شهر من النهاية تتوقف المشاريع. يوقف مجلس الشعب إجراءاته. يصمت بناء التلغراف الفيدرالي في شارع شبايشا وأيضاً معمل الساعات في «لوبنستراسي» والطاحونة التي وراء جسر نيديك. ما الحاجة إلى التجارة والصناعة حين لا يبقى سوى القليل من الزمن؟

يجلس البشر في المقاهي الرصيفية التي في شارع أمتهاوس، يحتسون القهوة ويتحدثون بارتياح عن حيواتهم. التحرر يملأ الجو. في هذه اللحظة تتحدث امرأة عيناها بنيتان مع أمها حول الوقت القصير الذي أمضياه مع بعضهما حين كانت الأم تعمل خياطة. تخطط الأم وابنتها للقيام برحلة إلى «لوسيرن». سوف يصلحان حياتين فيما تبقى من وقت. على طاولة أخرى يخبر رجل صديقه عن مشرف مكروه غالباً ما مارس الجنس مع زوجته بعد ساعات العمل في غرفة الملابس التابعة للمكتب وهدد بتسريحه إذا سبب هو أو زوجته أية مشكلة. لكن ما الذي يخيف الآن؟

رتب الرجل أموره مع المشرف وتصالح مع زوجته، وبعد أن ارتاح من ذلك مدد رجليه وطاف بعينيه فوق جبال الألب.

في المخبز الذي يقع في «السوق» يضع الخباز ذو الإصبع السميكة العجين في الفرن ويغني. في هذه الأيام يطلب الناس خبزهم بتهذيب. يبتسمون ويدفعون بسرعة لأن النقود تفقد قيمتها. يثرثرون حول نزهات تمت في فرايبورغ، عن وقت قضوه في الإصغاء إلى قصص أولادهم، عن نزهات طويلة في منتصف بعد الظهر. لا يبدو أنهم يكترثون بأن العالم سينتهي حالاً لأن الجميع يتقاسمون القدر نفسه. إن عالماً سينتهي بعد شهر هو عالم مساواة.

قبل يوم واحد من النهاية، تضج الشوارع بالضحك. الجيران الذين لم يتحدثوا أبداً مع بعضهم يتبادلون التحية كأصدقاء، يتعرّون ويستحمون في النافورة. آخرون يغوصون في نهر آري، وبعد أن يسبحوا إلى حد الإعياء يستلقون على العشب الكثيف على طول النهر ويقرأون الشعر. محام وموظف بريد لم يلتقيا أبداً من قبل يشبكان ذراعيهما ويسيران عبر بوتانشرغارتن، يبتسمان

لنبات قرن الغزال ونبات النجمية وبناقشان الفن واللون. ماذا تعني محطاتهما الماضية؟ في عالمٍ سينتهي بعد يوم واحد هما متساويان.

في ظلال شارع جانبي بعيد عن نهر آري، يستند رجل وامرأة إلى حائط، يشربان البيرة ويأكلان لحم البقر المجفف. فيما بعد، ستأخذه إلى شقتها. إنها متزوجة من شخص آخر لكنها أرادت هذا الرجل طوال سنوات وسوف تلبي رغباتها في هذا اليوم الأخير من نهاية العالم.

تعدو بعض الأرواح في الشوارع وتقوم بأفعال خيِّرة لتصحح أفعالها الشريرة التي ارتكبتها في الماضي. وكانت ابتساماتها هي الابتسامات الوحيدة الشاذة.

قبل دقيقة من نهاية العالم يجتمع الجميع على أراضي متحف كنسنت. يشكل الرجال والنساء والأولاد دائرة عملاقة ويمسكون أيدي بعضهم. لا يتحرك أويتحدث أحد. يخيم صمت مطبق بحيث يستطيع كل شخص أن يسمع نبض قلب الذي يقف على يمينه أو يساره. هذه هي الدقيقة الأخيرة في حياة العالم. في الصمت المطلق تلتقط نبتة كف ذئب أرجوانية الضوء على

الجانب الأسفل من أزهارها، تتوهج للحظة ثم تتلاشى بين الأزهار الأخرى. خلف المتحف ترتجف الأوراق الإبرية للشربين بنعومة حين يتحرك النسيم عبر الأشجار. وبعيداً إلى الخلف، عبر الغابة، يعكس نهر آري ضوء الشمس، يلتوي الضوء مع كل تجعيدة في سطحه. إلى الشرق، ينهض برج كاتدرائية القديس فنسنت أحمر وهشاً، بناؤه الحجري رقيق كشرايين ورقة. وفي الأعلى تبدو جبال الألب المكللة بالثلوج والتي تجمع بين الأبيض والأرجواني ضخمة وصامتة. تطوف غيمة في السماء. لا أحد يتحدث.

يبدو في الثواني الأخيرة وكأن الجميع قفزوا عن قمة توباز ممسكين بأيدي بعضهم. تقترب النهاية كأرض مقتربة. يهب الهواء البارد، تفقد الأجسام أوزانها. يتثاءب الأفق الصامت أميالاً. وفي الأسفل، يندفع غطاء الثلج الشاسع مقترباً ليغطي تلك الدائرة من اللون القرنفلي والحياة.

10 أيار 1905

الوقت أواخر بعد الظهر. تعشش الشمس لحظة قصيرة في تجويف جبال الألب الثلجي. تندفع أشعة الضوء المائلة والطويلة من الجبال عابرة بحيرة هادئة وترمي ظلالها على بلدة تقع في الأسفل.

تتألف البلدة من قطعةٍ واحدة وقطعٍ كثيرة. تشكّل أشجار التنوب والشربين وصنوبر الآرولا حداً من جهة الشمال والغرب، بينما توجد في الأعلى الزنابق، كف الذئب وحشيشة الأسد الألبية. في المراعي التي قرب

البلدة يرعى القطيـع مـن أجـل صناعـة الزبـدة والجبنـة والشـوكولاتة. تنتـج طاحونـة نسـيج صغـيرة الخيـوط الحريرية والشرائط والملابس القطنية. يرن جرس كنيسة. تملأ رائحة لحم البقر المجفف الشوارع والأزقة.

وتظهر نظرة متفحصة أنهـا مدينـة مـن قطـع كثـيرة. تعيش إحدى الحـارات في القـرن الخـامس عشـر. هنـا، ينضم إلى المنازل الطابقية المبنية من الحجر الخشن سلالم وشرفات خارجية، بينما تفغر الجملونات العليا أفواههـا وتنفتح للريح. تنمو الطحالب بين قطع أحجار السقوف. يبدو قسم آخر من القرية كصورة من القرن الثـامن عشـر. يتـدلى القرميـد الأحمـر المحـروق معلقـاً علـى السـقوف المستقيمة. تظهر كنيسة بنوافذ بيضوية الشكل، إيوانـات مرصوفة ومسقوفة وتصوينات غرانيتية. يمسك قسم آخـر بالحـاضر، برواقــات مقنطـرة تنتظـم في كـل جـادة، درابزونات معدنية على الشرفات، واجهات مصنوعة من الحجر الرملي الناعم.

كل قسم من القرية مثبت إلى زمن مختلف.

في نهاية بعد الظهر، في هذه اللحظات القليلـة بينمـا الشمس تعشش في التجويـف الثلجـي الألـبي، يسـتطيع

المرء أن يجلس قرب البحيرة ويتأمل نسيج الزمن. فرضياً، يمكن أن يكون الزمن ناعماً أو خشناً، شوكياً أو حريرياً، صلباً أو ليناً. لكن في هذا العالم يحدث أن يكون نسيج الزمن لاصقاً. تعلق مجموعة من البلدات في لحظة ما من التاريخ ولا تخرج. وهكذا أيضاً يعلق الأفراد في نقطة ما من حياتهم ولا يتحررون.

في هذه اللحظة، يتحدث رجل في أحد المنازل التي تقع أسفل الجبل مع صديق. يتحدث عن أيام دراسته في الجمنازيو. تتدلى شهادات الامتياز التي حصل عليها في الرياضيات والتاريخ على الجدران، تشغل ميدالياته الرياضية وغنائمه رفوف الكتب. هنا، على طاولة، توجد صورة له حين كان كابتن فريق التسييج يعانقه فيها شبان آخرون ذهبوا منذ ذلك الوقت إلى الجامعة وأصبحوا مهندسين ومصرفيين وتزوجوا. وفي الخزانة توجد ثيابه التي تعود إلى عشرين عاماً، بلوزة التسييج، بنطال التويد الضيق على خصره الآن. الصديق الذي كان يحاول طوال أعوام أن يعرّف الرجل على أشخاص آخرين يهز رأسه بكياسة ويصارع بصمت ليتنفس في الغرفة الصغيرة.

في منزل آخر، يجلس رجل إلى طاولته وحيداً وهي مجهزة لإثنين. منذ عشرة أعوام جلس هنا مقابل والده ولم يقدر أن يقول إنه يحبه، بحث خلال أعوام طفولته عن لحظة صلة، تذكّر الساعات التي جلس فيها ذلك الرجل الصامت مع كتابه، كان غير قادر أن يقول إنه أحبه، لم يقدر أن يقول إنه أحبه. يوجد على الطاولة صحنان، كأسان، شوكتان، كما كان الأمر في تلك الليلة الماضية. يبدأ الرجل تناول الطعام، لا يستطيع أن يأكل، يبكي غير قادر أن يسيطر على نفسه. لم يقل أبداً إنه أحبه.

في منزل آخر تنظر امرأة بولع إلى صورة ولدها الشاب المبتسم والمتألق. تكتب له رسالة إلى عنوان طويل مضلل، تتخيل الرسائل السعيدة التي ستتلقاها. حين يقرع ابنها الباب، لا تفتحه. حين يأتي ولدها بوجهه اللاهث وعينيه الزجاجيتين إلى نافذتها ويطلب النقود لا تسمعه. حين يترك لها ولدها ذو المشية المتعثرة رسائل متوسلاً أن يشاهدها ترمي الرسائل دون أن تفتحها. حين يقف ولدها في الليل خارج منزلها تنام باكراً. في الصباح تنظر إلى صورته، تكتب رسائل عبادة إلى عنوان مضلل طويل.

تشاهد عانسٌ وجه الشاب الذي أحبها في مرآة غرفة نومها، على سقف المخبز، على سطح البحيرة، في السماء.

إن مأساة هذا العالم هي أنه لا يوجد أي شخص سعيد سواء أكان عالقاً في زمن ألمٍ أو متعة. إنٍ مأساة هذا العالم هي أنٍ كل شخص هو وحيد لأن حياةً في الماضي لا يمكن أن تعاشٍ في الحاضر. إن كل شخص يعلق في الزمن يعلق وحيداً.

11 أيار 1905

حين يسير المرء في السوق يرى منظـراً عجبـاً: الكـرز الذي في أكشاك بيع الفاكهة مرتب في صفوف، القبعـات الـتي في المتجـر مجموعـة بأناقـة، الأزهـار الـتي علـى الشـرفات مرتبـة في تناسـق تـام. لا فتـات علـى أرض المخبز، لا حليب مسفوحاً علـى أرضيـة بيـت المـؤن. لا شيء خارج موضعه.

حين تنتهي حفلة مرحـة في مطعـم تصبـح الطـاولات أكثر ترتيباً مما كانت عليه. حين تهب ريح خفيفة عـبر

الشارع، يكنس الشارع ويصبح نظيفاً وتُنْقَل الأوساخ والغبار إلى حافة البلدة. حين تتكسَّر أمواج على الشاطئ، يعيد الشاطئ بناء نفسه. حين تسقط الأوراق عن الأشجار، تصطف الأوراق كالطيور في تشكيل كحرف V. حين تشكل الغيوم وجوهاً، تبقى الوجوه. حين ينفث غليون الدخان في غرفة يندفع السخام نحو زاوية الغرفة تاركاً جواً خالياً. تصبح الشرفات المطلية المعرضة للريح والمطر أكثر تألقاً مع مرور الزمن. يجعل صوت الرعد أصيصاً مكسوراً يعيد تكوين نفسه، يجعل الشظايا المحطمة تقفز إلى أماكنها المحددة حيث تتلاءم وتلتحم. يزداد الأريج الفواح لعربة قرفة عابرة ولا يتلاشى مع مرور الزمن.

هل تبدو هذه الحوادث غريبة؟

يسبب مرور الزمن في هذا العالم نظاماً متزايداً. النظام هو قانون الطبيعة، الميل العالمي، الجهة الكونية. إذا كان الزمن سهماً، يشير السهم نحو النظام. المستقبل نموذج، منظمة، اتحاد، توتير، الماضي عشوائية، فوضى، تحلل، تلاشٍ.

يرى الفلاسفة أنه بدون اتجاه نحو النظام يفقد الزمن معناه. يصبح الزمن غير قابل للتمييز عن الماضي. يصير تعاقب الأحداث مشاهد عشوائية من ألف رواية.

سيصبح التاريخ غير قابل للتمييز مثل الضباب الذي تجمعه ببطء قمم الأشجار في المساء.

في عالم كهذا يستلقي البشر الذين يعيشون في منازل غير مرتبة في أسرتهم وينتظرون أن تنفض قوى الطبيعة الغبار عن أسكفات نوافذهم وترتب الأحذية في خزائنهم. البشر الذين يعيشون علاقات غير منظمة يمكن أن يقوموا بنزهات بينما تصبح تقاويمهم منظمة، مواعيدهم مرتبة وأرصدتهم متوازنة. يمكن أن توضع الفرشاة، وأحمر الشفاه والرسائل في المحفظات بإهمال مع وجود قناعة أنها سترتب نفسها آلياً. ولن تحتاج الحدائق إلى أن تشذب والأعشاب إلى أن تُستأصل. تصبح المكاتب أنيقة في نهاية اليوم. الثياب التي على الأرض في المساء تتوضع على الكراسي في الصباح. الجرابات المفقودة تعاود الظهور.

إذا زار المرء مدينة في الربيع يرى منظراً عجباً آخر. ذلك أن البشر يمرضون في الربيع من نظام حياتهم. يدمر البشر في الربيع منازلهم بغضب، يتحركون بين الأوساخ،

يحطمون الكراسي، يكسرون النوافذ. في شارع آربر أو أية جادة سكنية يسمع المرء في الربيع أصوات الزجاج المحطم والصراخ والعويل والضحك. في الربيع يلتقي البشر في أوقات غير منظمة، يحرقون كتب مواعيدهم، يقذفون ساعات يدهم بعيداً، يشربون طوال الليل. يستمر هذا الوضع الهستيري إلى الصيف حين يستعيد البشر أحاسيسهم ويعودون إلى النظام.

14 أيار 1905

ثمة مكان يتوقف فيه الزمن. تتدلى قطرات المطر دون حراك في الجو. تتجمد رقاصات الساعات في منتصف التأرجح. ترفع الكلاب خطومها في عواء صامت. يتجمد العابرون في الشوارع الغبارية وأرجلهم مرفوعة نحو الأعلى كأنها مشدودة بخيوط. تعلق روائح البلح والمانغا والكزبرة والكمّون في الفضاء.

حين يقترب مسافرٌ إلى هذا المكان من أية جهة، يتحرك ببطء متزايد. يزداد تباعد دقات قلبه، يضعف

نَفَسُهُ، تنخفض حرارته، تبهت أفكـاره إلى أن يصـل إلى حالة الموت ويتوقّف. ذلك أن هذا هو مركـز الزمـن. مـن هذا المكان يتحرك الزمن نحـو الخـارج في دوائـر متحـدة المركز يكون مسـتقراً في المركـز، يجمـع السـرعة ببسطه في أقطار دوائر أكبر. من الذي سيحجُّ إلى مركز الزمن؟ الآباء والأمهات مع أولادهم والعشاق.

وهكذا، في المكان الذي يتوقف فيه الزمن، يرى المـرء الآباء والأمهات يتشبّثون بـأولادهم في عنـاق متجمـد لـن يتحـرر أبـداً. لـن تتوقـف الإبنـة الشـابة الجميلـة ذات العينين الزرقاوين والشعر الأشقر عن تلك الابتسامة الـتي تبتسمها، لن تفقد توهـج خديهـا القرنفلـي النـاعم، لـن تنالها التجاعيد أو التعب، لن تصاب بالأذى، لن تنسى ما علمها والداها، لن تعرف الشر أبداً، لن تقول لوالديها أبـداً إنهـا لا تحبهمـا، لـن تغـادر أبـداً غرفتهـا المطلـة على البحر، لن تتوقف أبداً عن لمس والديها كمـا تفعـل الآن.

وفي المكـان الـذي يتوقـف فيـه الزمـن يشـاهد المـرء العشـاق يتبـادلون القبـل في ظـلال المبـاني في عناقـات متجمدة لن تنفك أبـداً. لـن يزيـح المعشـوق ذراعيـه عـن

موقعهما لن يعيد سوار الذكريات، لن يسافر بعيداً عن معشوقته، لن يخاطر بنفسه في التضحية الذاتية، لن يفشل في إظهار حبه، لن يغار أبداً، لن يقع في حب امرأة أخرى، لن يفقد أبداً هوى هذه اللحظة في الزمن.

يجب أن يلاحظَ المرء أن تلك التماثيل مضاءة بأضعف لون أحمر لأن الضوء تلاشى في مركز الزمن وتحولت ذبذباته إلى أصداء في الأودية الواسعة وصُغر توتره حتى أصبح مثل التوهج الباهت للحباحب.

أولئك الذين ليسوا هادئين في مركز الزمن يتحركون فعلاً لكن بخطوات متجمدة. يمكن أن يستغرق تمشيط الشعر عاماً، يمكن أن تستغرق قبلة ألف عام. وفي الوقت الذي تُعاد فيه ابتسامة تمر الفصول في العالم الخارجي. وفي الوقت الذي يُضمّ فيه طفل تبني جسور. وفي الوقت الذي يقال فيه وداعاً تتفتت مدن وتنسى.

وأولئك الذين يعودون إلى العالم الخارجي..

ينمو الأطفال بسرعة، ينسون عناق آبائهم وأمهاتهم الذي استمر قروناً والذي، بالنسبة إليهم، استمر بضع

ثوان فقط. الأطفال الذين يصبحون راشدين، يعيشون بعيداً عن أمهاتهم وآبائهم في منازلهم الخاصة، يتعلمون طرقاً خاصة بهم، يعانون من الألم، يشيخون. يلعن الأطفال آباءهم وأمهاتهم لأنهم يحاولون الاحتفاظ بهم إلى الأبد، يلعنون الزمن بسبب تجاعيد جلدهم وأصواتهم الأجشة. هؤلاء الذين أصبحوا أطفالاً شائخين يريدون أن يوقفوا الزمن لكن في زمن آخر. يريدون أن يجمدوا أبناءهم في مركز الزمن.

العشاق الذين يعودون يجدون أن أصدقاءهم رحلوا منذ وقت طويل. في النهاية، انتهت فترات الحيوات. يتحركون في عالمٍ لا يعرفونه. العشاق الذين عادوا ما يزالون يتعانقون في ظلال الأبنية إلا أن عناقاتهم تبدو الآن فارغة ووحيدة. حالاً ينسون الوعود التي عمرها قرون والتي، بالنسبة لهم، استمرت بضع ثوان فقط. حتى بين الغرباء، يتبادلون كلمات نابية، يفقدون الهوى، ينفصلون، يشيخون ويصبحون وحيدين في عالمٍ لا يعرفونه.

يقول البعض من الأفضل عدم الاقتراب من مركز الزمن. الحياة قارب حزن إلا أنه من النبل أن يعيش

المرء الحياة ولكن بدون الزمن لا توجد حياة. لا يوافق آخرون. سيفضلون أبدية من القناعة حتى ولو كانت متوقفة ومتجمدة، كفراشة حبيسة في علبة.

15 أيار 1905

تخيل عالماً يخلو من الزمن، ليس فيه إلا الصور.

طفلة على الشاطئ، مسحورة من رؤيتها الأولى للمحيط. امرأة واقفة على الشرفة فجراً شعرها المنسدل، ثياب نومها الفضفاضة، شفتاها. القوس المحنية للرواق المقنطر قرب نافورة تسيرغنا في شارع كرام، الحجرِ الرملي والحديد. يجلس رجل في مكتبه الهادئ حاملاً صورة امرأة وثمة نظرة استياء على وجهه. عقابٌ مؤطرٌ في السماء باسطٌ جناحيه، أشعة الشمس تتغلغل في

ريشه. يجلس فتى يافع في صالة فارغة يخفق قلبه كأنه على خشبة المسرح. آثار أقدام على الثلج في جزيرة شتائية. قارب على المياه في الليل تبدو أضواءه باهتة في المسافة كمثل نجمة صغيرة حمراء في السماء السوداء. خزانة أدوية مغلقة. امرأة تلبد في الدغل، تنتظر قرب منزل زوجها اللامبالي الذي يجب أن تتحدث إليه. مطر خفيف في يوم ربيعي أثناء نزهة هي النزهة الأخيرة التي يقوم بها شاب في المكان الذي يحبه. غبار على أسكفة نافذة. طاولة تعرض فليفلة صفراء وخضراء وحمراء.

ماترهورن، قمة البياض المسننة المندفعة في السماء الزرقاء الكثيفة، الوادي الأخضر وكابينات الخشب.

ثقب إبرة. ندى على الأوراق كريستالي ومتخايف الألوان. أم تبكي في سريرها ورائحة الحبق في الجو. طفلة تركب دراجة في كلاينشانسا تبتسم ابتسامة تنتمي إلى فترة الحياة. برج صلاة طويل، ثمانيّ الأضلاع، شرفته مفتوحة، جليل ومحاط بالأذرع. بخار يتصاعد من بحيرة في صباح باكر. دِرْجٌ مفتوح. صديقان في مقهى، ضوء المصباح يضيء وجه أحد الأصدقاء، الآخر في الظل. قطة تراقب خنفساء على النافذة. فتاة شابة

على مقعد، تقرأ رسالة، دموع الفرح في عينيها الخضراوين. حقل كبير مخطط بأشجار الأرز والتنوب. ضوء الشمس الداخل في زوايا طويلة من خلال النافذة في نهاية بعد الظهر. شجرة كبيرة ساقطة جذورها مرتفعة في الجو، ما يزال اللحاء أخضر والأعضاء أيضاً. بياض مركب شراعي، الريح خلفه، يبحر منتفخاً كجناحي طائر أبيض عملاق. أب وابن وحيدان في مطعم، الأب حزين ويحدق بغطاء الطاولة. نافذة بيضوية تطل على حقول القش، عربة خشبية، أبقار خضراء وأرجوانية في ضوء بعد الظهر. زجاجة محطمة على الأرض، سائلٌ بنيٌ في الصدوع، امرأة عيناها حمراوان. عجوز في المطبخ يعد الفطور لحفيده، الطفل يحدق عبر النافذة إلى مقعد مطلي باللون الأبيض. كتاب مهترئ على طاولة قرب مصباح باهت. البياض على المياه كموجة تتلاشى تعصف بها الريح. امرأة تستلقي على أريكتها، شعرها مبلل، تمسك يد رجل لن تراه مرة ثانية أبداً، قطار عرباته حمراء على جسر حجري كبير أقواسه بارعة الجمال، نهر في الأسفل، نقاط صغيرة هي منازل بعيدة، ذرات الغبار تعوم في ضوء الشمس من خلال نافذة، الجلد

الرقيق في منتصف عنق، رقيق بما يكفي لرؤية نبض الدم. رجل وامرأة عارّيان يغطيان بعضهما، الظلال الزرقاء للأشجار تحت البدر، قمة جبل وريح قوية منتظمة، يتراءى الوادي في جميع الجهات، سندويتشات لحم بقر وجبنة، طفل ينقز من صفعة والده، شفتا الأب ملويتان من الغضب، الطفل لا يفهم، وجه غريب في المرآة شائب عند الصدغين. شاب يحمل هاتفاً منذهل مما يسمع، صورة عائلة، الأب والأم شابان ومسترخيان، الأولاد يرتدون ربطان العنق والفساتين ويبتسمون. ضوء بعيد باهت يبدو من خلال أجمة أشجار، اللون الأحمر عند الغروب، قشرة بيضة، هشة، غير محطمة، قبعة زرقاء مغسولة على الشاطئ. ورود مقطوعة طافية في النهر تحت الجسر وجوسق يرتفع. شعر أحمر لعاشقة، وحشيٌّ، شريرٌ وواعد. امرأة شابة تحمل تويجات أرجوانية. غرفة من أربعة جدران ونافذتين وسريرين وطاولة ومصباح وشخصين بوجهين حمراوين ودموع. القبلة الأولى، كواكب عالقة في الفضاء، محيطات، صمت، قطرة ماء على النافذة، حبل ملتف، فرشاة صفراء.

20 أيار 1905

إن نظرة إلى الأكشاك المزدحمة في «شارع شبيتال» تروي القصة. يسير البقالون بتردد من كشك إلى آخر ليكتشفوا ماذا يبيع كل كشك. هنا يوجد تبغ، لكن أين بذار الخردل؟ هنا يوجد شوندر سكري لكن أين سمك البقلاي؟ هنا حليب الماعز لكن أين الساسفراس؟ ليس هؤلاء سواحاً في زيارتهم الأولى لبرن. إنهم مواطنو «بيرن». لا أحد يتذكر أنه اشترى منذ يومين شوكولاته من حانوت يدعى «فرديناندز» أو لحم بقر من محل

«هوف» للمواد الغذائية. يجب أن يُعثر على كل حانوت وما يختص به من جديد. يسيركثيرون وفق الخرائط التي ترشدهم من رواق مقنطرإلى آخر في المدينة التي عاشوا فيها طوال حياتهم، في الشارع الذي تنقلوا فيه طوال أعوام. يسير كثيرون حاملين الدفاتر ليسجلوا ما تعلموه بينما يمكث لوهلة في رؤوسهم. ذلك أن البشر في هذا العالم بلا ذاكرات.

حين يحين وقت العودة إلى المنزل في نهاية اليوم يستشير كل شخص كتاب عناوينه ليعرف أين يعيش. يكتشف اللحام الذي قام بتقطيع غير جيد في اليوم الأول من عمله أن منزله يقع في شارع نيغال. السمسار الذي أنتجت ذاكرته المحدودة عن السوق استثمارات ممتازة، يقرأ أنه يسكن في شارع بندس. حين يصل كل رجل إلى منزله يجد امرأة وأطفالاً ينتظرون عند الباب، يعرّف عن نفسه، يساعد في تحضير وجبة العشاء، يقرأ قصصاً لأطفاله. كذلك، كل امرأة تعود من عملها تقابل زوجاً وأطفالاً وخوانات ومصابيح وورق جدران ونماذج من الآنية. في وقت متأخر من الليل لا يبقى الزوج والزوجة حول الطاولة ليناقشا أعمال اليوم، مدرسة أولادهما،

رصيد البنك، بدلاً من ذلك، يبتسمان لبعضهما. يشعران بالدم الدافئ وبالألم بين الساقين كما كانا يفعلان حين التقيا للمرة الأولى منذ خمسة عشر عاماً. يعثران على غرفة نومهما، يتعثران وهما يعبران صوراً عائلية لا يتعرفان عليها ويمضيان الليل في الشبق. ذلك أن العادة والذاكرة تبلّدان الهوى الجسدي. بدون ذاكرة، كل ليلة هي الليلة الأولى، كل صباح هو الصباح الأول، كل قبلة ولمسة تحدثان لأول مرة.

إن عالماً بدون ذاكرة هو عالم الحاضر. ينحصر وجود الماضي في الكتب والسجلات. يحمل كل شخص كتاب الحياة الخاص به من أجل أن يعرف نفسه وهذا الكتاب مليء بتاريخ حياته. يستطيع أن يتعرف على هوية والديه أو فيما إذا ولد غنياً أو فقيراً أو إذا كان جيداً أو سيئاً في المدرسة أو إذا أنجز أي شيء في حياته، حين يقرأ صفحات الكتاب كل يوم. بدون كتاب الحياة، يصبح المرء صورة عابرة، صورة ببعدين، شبحاً. في المقاهي التي تقع تحت الأشجار المورقة في برونغاسهالدي يسمع المرء صراخاً أليماً لرجل قرأ لتوه أنه قتل مرة رجلاً آخر وتنهيدة امرأة اكتشفت لتوها أن أميراً خطبها، تباهياً

مفاجئاً من امرأة عرفت أنها حصلت على تشريفات عليا من جامعتها منذ عشرة أعوام. يمضي البعض ساعات الغسق حول طاولاتهم وهم يقرؤون في كتب الحياة، آخرون يملأون بعصبية صفحاتها الإضافية بحوادث اليوم.

مع مرور الزمن تزداد سماكة كتاب الحياة الخاص بكل شخص بحيث لا تمكن قراءته كله. عندئذ يأتي خيارٌ: الرجال والنساء الكبار في السن يمكن أن يقرأوا الصفحات الأولى ليتعرفوا على أنفسهم كشباب، أو يمكن أن يقرأوا النهاية ليتعرفوا على أنفسهم في سنوات لاحقة.

توقف البعض عن القراءة. تخلوا عن الماضي. قرروا أنه لا يهم إذا كانوا أغنياء أم فقراء في الماضي، متعلمين أم جهلة، متكبرين أم متواضعين، عاشقين أم فارغي القلوب ـ ولا يهمهم أيضاً كيف تدخل الريح الخفيفة في شعرهم. ينظر بشر كهؤلاء إلى عينيك بشكل مباشر ويمسكون يدك بشدة. يسير بشر كهؤلاء بالخطوة الواسعة الرشيقة لشبابهم. تعلم بشر كهؤلاء كيف يعيشون في عالم بلا ذاكرة.

22 أيار 1905

في الفجر، يطوف ضباب أصفر عبر المدينة يحمله نَفَسُ النهر. تنتظر الشمس وراء جسر «نيديك» وتلقي أسنتها الحمراء الطويلة على طول «شارع كرام» مضيئة الأجزاء السفلية للشرفات وصولاً إلى الساعة العملاقة التي تقيس الزمن. تندفع أصوات الصباح عبر الشوارع كرائحة الخبز. تستيقظ طفلة وتبكي طالبة أمها. تصدر ظلة حانوت صريراً بهدوء عندما يصل البقال إلى حانوته

في «السوق». تجأر آلة في النهر، تتحدث امرأتان بهمس تحت رواق مقنطر.

وحين تذوب المدينة في الضباب والليل يرى المرء مشهداً غريباً: هنا جسر قديم لم يكتمل بناؤه. هناك منزل أزيل من أسسه، هنا شارع يتجه إلى الشرق دون سبب واضح، هناك يتوضع مصرف وسط سوق البقالة. يصوّر زجاج كاتدرائية القديس فنسنت السفلي الملون مواضيع دينية وينتقل الجزء الأعلي فجأة إلى صورة جبال الألب في الربيع. يسير رجل بخفة نحو «مجلس الشعب»، يتوقف فجأة، يضع يديه على رأسه، يصيح مهتاجاً، يستدير ويسرع في الجهة المعاكسة.

هذا عالم خطط متبدلة، فرص مفاجئة، رؤى غير متوقعة. ذلك أن الزمن يتدفّقُ في هذا العالم على صورة متقطعة لا مستوية وبالتالي يتلقى البشر لمحات متقطعة عن المستقبل.

حين تتلقى أم رؤية مفاجئة عن مكان سكن ولدها تنقل منزلها لتصبح قربه. حين يرى بنّاء مكان التجارة المستقبلي يغير طريقه نحو ذلك الاتجاه. حين تلمح طفلة نفسها لوهلة كبائعة أزهار تقرر عدم الذهاب إلى

الجامعة. حين يتلقى شاب رؤية عن المرأة التي سيتزوجها، ينتظرها. حين يبصر محام نفسه في عباءة قاض في «زوريخ» يتخلى عن عمله في «بيرن». ما معنى متابعة الحاضر بعد أن يرى المرء المستقبل؟

إن هذا العالم هو عالم نجاح مضمون لأولئك الذين تلقوا رؤيتهم. إن بعض المشاريع التي بدأت لا تقود إلى مهنة. بعض الرحلات التي تمت لا تقود إلى مدينة القدر، بعض الذين تمت مصادقتهم لن يصيروا أصدقاء في المستقبل. لقد صُنعت بعض العواطف.

أما بالنسبة للذين لم يتلقوا رؤيتهم فهذا عالم تشويق غير فعال. كيف يستطيعُ المرء أن يسجل في جامعةٍ دون أن يعرف مهنته المستقبلية؟ كيف يفتح المرء صيدلية في «السوق» حين سيكون محل مشابه أفضل في شارع «شبيتال»؟ كيف تقدر امرأة أن تمارس الجنس مع رجل من المحتمل أن يخونها؟ ينام بشرٌ كهؤلاء معظم النهار وينتظرون مجيء رؤيتهم.

وهكذا تقلّ المجازفات في هذا العالم المؤلف من مشاهد قصيرة. وأولئك الذين لم يشاهدوا المستقبل بعد، ينتظرون الرؤية دون أن يجازفوا.

بعض الذين شاهدوا المستقبل يفعلون ما بوسعهم ليفندوه. يذهب رجلٌ ليعتني بحدائق المتحف في «نيوشاتل» بعد أن رأى نفسه محامياً في «لوسيرن». ينطلق شاب في رحلة بحرية رائعة مع والده بعد أن رأى أن والده سيموت حالاً من أزمة قلبية. تسمح شابة لنفسها أن تقع في الغرام مع رجل ما رغم رؤيتها بأنها ستتزوج رجلا آخر. يقف بشر كهؤلاء على شرفاتهم بعد الغروب ويصيحون أن المستقبل يمكن أن يُغيِّر، أن آلاف المستقبلات ممكنة. مع مرور الزمن، يتعب حدائقي «نيوشاتل» من أجوره المنخفضة ويصبح محامياً في «لوسيرن». يموت الأب بسبب الأزمة القلبية ويكره الإبن نفسه لأنه لم يجبر والده على البقاء في الفراش. يهجر العشيق المرأة الشابة التي بدورها تتزوج رجلاً يمنحها العزلة والألم.

من الذي تجري أموره بشكل أفضل في عالم زمنه متقطع؟ أولئك الذين شاهدوا المستقبل ويعيشون حياة واحدة؟ أم أولئك الذين لم يروا المستقبل وينتظرون أن يعيشوا الحياة؟ أم أولئك الذين ينكرون المستقبل ويعيشون حياتين؟

29 أيار 1905

إن رجلاً أو امرأة يُدفعان فجأة إلى هذا العالم يجب أن ينحرفا عن المنازل والأبنية. ذلك أن كل شيء في حالة حركة. تندفع المنازل والشقق الصاعدة على عجلات عبر ساحة «باهنوفبلاتز» وتسرع عبر أزقة السوق بينما يصرخ ساكنوها من نوافذ الطوابق الثانية. لا يبقى مكتب البريد في شارع «بوست» بل يطير عبر المدينة على سكة كالقطار. ولا يبقى مجلس الشعب

متوضعاً في شارع «بوندس». في كل مكان يجأر الجو ويزأر بصوت المحركات والسيارات. حين يخرج شخص من بابه الخارجي عند شروق الشمس يندفع راكضاً ويلحق بمكتبه. يسرع صاعداً وهابطاً الدرج يعمل على مكتب يندفع في دوائر ويعدو نحو المنزل في نهاية اليوم. لا يجلس أحد تحت شجرة حاملاً كتاباً، لا يحدق أحد إلى التجعدات في بركة، لا يستلقي أحد على العشب الكثيف في الريف. لا أحد ثابتاً.

لماذا ثباتٌ كهذا إبان السرعة؟ لأن الزمن في هذا العالم يمر ببطء أكبر بالنسبة للبشر الذين في حالة حركة. هكذا يتحرك الجميع بسرعة مرتفعة ليكسبوا الوقت.

لم يلاحظ تأثير السرعة إلى أن اخترع محرك الاحتراق الداخلي وبدأ النقل السريع. أخذ السيد راندولف ويك من «سُري» حماته إلى لندن بسرعة كبيرة في سيارته الجديدة في ٨ أيلول ١٨٨٩. وما أفرحه هو أنه وصل في نصف الوقت المتوقع قبل أن تبدأ المحادثة. قرر أن يفكر بالظاهرة. بعد أن نشرت أبحاثه لم يسافر أحد بعد ذلك ببطء.

بما أن الزمن نقود فإن الاعتبارات المالية وحدها تملي على كل مكتب سمسرة، كل مركز صناعي، كل حانوت أن ينتقل باستمرار بالسرعة الممكنة ليجني فوائد أكثر من منافسيه. تزوَّد أبنية كهذه بآلات عملاقة ولا ترتاح أبداً. تزأر محركاتها ومحاور أذرعة تدويرها بصخب أكثر من الأجهزة والبشر الذين يشغلونها.

كذلك، تباع المنازل ليس بسبب حجمها وتصميمها فحسب، بل أيضاً بسبب سرعتها. لأنه كلما ازدادت سرعة انتقال المنزل كلما تباطأت حركة الساعات في الداخل وتوفر الوقت لقاطنيه. ونظراً للسرعة، يستطيع شخص في منزل سريع أن يسبق جيرانه عدة دقائق في يوم واحد. يتواصل هذا الهوس بالسرعة طوال الليل حين يمكن أن يُكتسب الوقت القيم أو يُخسر أثناء النوم. في الليل تضاءُ الشوارع لكي تتجنب المنازل العابرة الاصطدام الذي غالباً ما يكون مهلكاً.

في الليل يحلم البشر بالسرعة وبالشباب وبالفرصة. في عالم السرعة الكبيرة هذا أدركت إحدى الحقائق ببطء. استناداً إلى التوتولوجيا المنطقية، التأثير الحركي نسبي كله، لأنه حين يمر شخصان في الشارع يرى كل منهما

الآخر في حالة حركة تماماً كما يرى امرؤٌ في قطار طيران الأشجار من خلال نافذته. بالتالي، حين يعبر شخصان في الشارع يرى كل منهما زمن الآخر يتباطأ. يرى كل منهما الآخر يكتسب وقتاً. يسبب هذا التبادل الجنون. ومما يزيد في الجنون أنه كلما أسرع المرء في تجاوز جارٍ كلما ظهر الجار مسرعاً.

محبطين وقانطين، يتوقف البعض عن النظر من نوافذهم. إذا كانت الستائر مسدلة لا يعرفون أبداً نسبة سرعة حركتهم ونسبة سرعة جيرانهم ومنافسيهم. ينهضون في الصباح، يستحمون، يأكلون خبزاً ولحم خنزير، يشتغلون على مكاتبهم، يصغون إلى الموسيقا، يتحدثون مع أطفالهم، يعيشون حيوات قناعة ورضاً.

يجادل البعض أن ساعة البرج العملاقة في شارع كرام هي وحدها التي تحتفظ بالزمن الصحيح، وهي وحدها ثابتة. يشير آخرون أنه حتى الساعة العملاقة هي في حالة حركة إذا نظر إليها من نهر آري أو من سحابة.

فـاصـل

يجلس آينشـتاين وبيسـو ظهـراً في مقهـى رصيفـي في شارع «أمتهاوس» بعد أن طلب «بيسو» من صديقه مغادرة المكتب لاستنشاق بعض الهواء.

يقول بيسو: «لا تبدو على ما يرام».

يهز آينشتاين كتفيه مستاءً قليلاً. تمر الدقائق أو ربما الثواني فقط.

يقول آينشتاين: «أنا أحرز تقدماً».

يقول بيسو متفحصاً بذعر الدوائر السوداء تحت عيني صديقه: «هذا واضح».

من المحتمل أيضاً أن آينشتاين توقف عن تناول الطعام مرة ثانية. يذكر بيسو حين بدا تماماً كما يبدو آينشتاين الآن لكن لسبب آخر. شعر «بيسو» الذي لم تكن علاقته مع والده جيدة أبداً بالأسى الشديد وبالذنب. عُرقلت دراساته. وفوجئ حين جاء به آينشتاين إلى منزله واعتنى به شهراً كاملاً.

يشاهد بيسو آينشتاين الآن ويرغب لو أنه يستطيع أن يساعده لكن آينشتاين لا يحتاج إلى مساعدة. بالنسبة «لبيسو»، آينشتاين لا يتألم. يبدو متناسياً لجسده وللعالم.

يقول آينشتاين مرة أخرى: «أنا أحرز تقدماً. أعتقد أن الأسرار ستنكشف. هل شاهدت بحث لورينتز الذي تركته على مكتبك؟

- إنه سيء.

نعم، سيء ومخصص لغرض معين وعلى الأرجح ليس صحيحاً. تخبرنا التجارب الكهرطيسية شيئاً ما أكثر أهميةً.

يحك آينشتاين شاربه ويأكل بنهم البسكويت الرقيق الموجود على الطاولة.

يصمت الرجلان قليلاً. يضع «بيسو» أربعة مكعبات سكر في فنجان قهوته بينما يحدق آينشتاين إلى جبال الألب البيرينية البعيدة جداً والتي لا تكاد ترى بسبب الضباب. وفي الحقيقة، ينظر آينشتاين عبر جبال الألب إلى الفضاء. أحياناً تسبب له رؤية بعيدة كهذه صداعاً وعندئذ يتوجب عليه أن يستلقي مغمض العينين على خوانه الملبس بقماش أخضر.

يقول له بيسو: «تريدك «آنا» أن تأتي أنت و«ميليفا» إلى العشاء غداً، وبوسعكما إحضار الطفل إذا شئتما.

يهز آينشتاين رأسه.

يحتسي «بيسو» فنجان قهوة آخر، ينظر إلى امرأة تجلس إلى طاولة مجاورة ويُثني قميصه. شعره منفوش كشعر آينشتاين الذي كان هذه المرة يحدق إلى المجرات.

يقلق «بيسو» فعلاً على صديقه رغم أنه شاهده هكذا في الماضي. ربما سيلهيه العشاء.

يقول بيسو: « مساء السبت».

يقول آينشتاين بشكل غير متوقع: «أنا مشغول مساء السبت لكن ميليفا وهانز آلبرت يستطيعان المجيء».

يضحك بيسو ويقول: «مساء السبت في الثامنة».

احتار لماذا تزوج صديقه. آينشتاين نفسه لا يستطيع أن يشرح ذلك. اعترف مرة «لبيسو» أنه كان يأمل أن تقوم «ميليفا» بالأعمال المنزلية على الأقل إلا أن المسألة لم تسر على هذا النحو. بقي السرير دون ترتيب والغسيل متّسخاً وتكوّمت الصحون كما حدث من قبل. ولقد ازدادت المشاغل بعد ولادة الطفل.

يسأله بيسو: «ما رأيك بتطبيق راسموسين؟

ـ الزجاجة النابذة.

ـ نعم.

يقول آينشتاين: «سيتذبذب العمود كثيراً بحيث تنعدم فائدته، إلا أن الفكرة ذكية. أعتقد أنه سيعمل بصعودٍ مرن يستطيع أن يعثر على محور دورانه الخاص».

يعرف بيسو ماذا يعني هذا الكلام. سيضع آينشتاين تصميماً جديداً ويرسله إلى «راسموسين» دون أن يطلب

أجراً أو اعترافاً. وغالباً لا يعرف متلقو اقتراحات آينشتاين المحظوظون من الذي راجع طلبات اختراعاتهم. لا يعني هذا أن آينشتاين لا يستمتع بالشهرة. منذ بضع سنوات، حين شاهد بحثه الأول منشوراً في مجلة الفيزياء السنوية قلّد ديكاً خمس مرات بشكل كامل.

2 حزيران 1905

تُرفَع خوخة رخوة من القمامة وتوضع على الطاولة كي تتورّد. تتورّد، تصبح صُلبة وتُحمل في كيس تسوّق إلى البقالية، توضع على الرف، تزال، توضع في سلة وتعاد إلى الشجرة ذات البراعم القرنفلية. ذلك أن الزمن يتدفق إلى الوراء في هذا العالم.

تجلس امرأة هرمة لا تكاد تتحرك على كرسي، وجهها أحمر ومنتفخ، فاقدة للبصر وللسمع وتنفسها أجش كحفيف الأوراق الذابلة على الأحجار. تمرّ

الأعوام، يقل الزوار، تكتسب المرأة القوة تدريجياً، يزداد أكلها، تفقد الخطوط الثقيلة التي في وجهها، تسمع أصواتاً، موسيقا. تتوضح ظلالٌ غامضة في الضوء وأيضاً خطوط وصور الطاولات والكراسي ووجوه البشر. تتنزّه خارج منزلها الصغير، تذهب إلى السوق، تزور صديقة أحياناً، تشرب الشاي في المقاهي حين يكون الطقس صاحياً. تخرج إبراً وخيوطاً من قاع درج خزانتها وأيضاً نسيجاً محبوكاً. تبتسم حين تحبّ عملها. في أحد الأيام يُنْقل زوجها بوجه شاحب إلى منزلها. بعد ساعات يتورد خداه، يقف محنياً كتفيه إلى الأمام، ينتصب، يتحدث معها. يصبح منزلها منزلهما. يأكلان الوجبات سوية، يرويان نكات، يضحكان. يسافران عبر البلاد، يزوران أصدقاءهما. يسودّ شعرها الشائب ويكتسي بخطوط بنية ويصدح صوتها بألحان جديدة. تذهب إلى حفل تقاعدٍ في «الجمنازيو» وتبدأ تدريس التاريخ. تحبّ طلابها تتجادل معهم بعد الدرس. تقرأ أثناء ساعة غدائها وفي الليل تلتقي بالأصدقاء وتناقش التاريخ والأحداث الجارية. تساعد زوجها في إعداد حساباته في مخزن الأدوية، تسير معه في سفح الجبال

وتمارس معه الحب. يصبح جلدها ناعماً وشعرها طويلاً وبنياً وثدياها صلبين. تشاهد زوجها للمرة الأولى في مكتبة الجامعة وتستجيب لنظراته. تحضر الدروس. تتخرج من «الجمنازيو» بينما والدها وأختها يذرفان دموع السعادة. تعيش في المنزل مع والديها، تمضي ساعات مع أمها سائرة عبر الغابات قرب المنزل، تساعد في جلي الصحون. تروي قصصاً لأختها الصغيرة، يُقرأ لها في الليل قبل النوم، تزداد صغراً، تزحف وترضع.

يسير رجل متوسط العمر على خشبة مسرح صالة في ستوكهولم حاملاً ميدالية. يصافح رئيس أكاديمية العلوم السويدية، يستلم جائزة نوبل في الفيزياء ويُصغي إلى الخطاب التنويهي العظيم. يفكر الرجل لوهلة قبل تسلم الجائزة. تنتقل أفكاره بسرعة عشرين عاماً إلى المستقبل حيث سيعمل وحيداً في غرفة صغيرة بقلم رصاص وورقة فقط. سيعمل ليلاً ونهاراً ويقوم بكثير من البدايات الخاطئة مالئاً سلة المهملات بسلسلة غير ناجحة من المعادلات والنتائج المنطقية. لكنه سيعود في بعض الأمسيات إلى مكتبه عارفاً أنه تعلم أشياء عن الطبيعة لم يعرفها أحد من قبل، أنه دخل مغامراً إلى الغابة وعثر

على الضوء وحظي بأسرار ثمينة. في تلك الأمسيات سيخفق قلبه كأنه واقع في الغرام.

يتغلب عليه الآن توقّع اندفاع الدم ذاك، وذلك الوقت حين سيكون شاباً ومجهولاً وخائفاً من الأخطاء وهوٍ يجلس على كرسيه في الصالة في «ستوكهولم» بعيداً جداً عن الصوت الخافت للرئيس الذي يعلن اسمه.

يقف رجل إلى جانب قبرٍ صديقه، يرمي حفنة من التراب على الكفن شاعراً بمطر نيسان البارد على وجهه. لكنه لا يبكي. ينظر إلى الأمام، إلى اليوم الذي ستصبح فيه رئتا صديقه قويتين، حين سيخرج صديقه من فراشه ويضحك حين سيشرب الإثنان الجعة معاً ويبحران ويتحدثان. إنه لا يبكي. ينتظر بتوق يوماً معيناً يتذكره في المستقبل حين سيتناول هو وصديقه سندويتشات على طاولة مسطحة منخفضة، حين سيصف خوفه من الشيخوخة ومن غياب الحب وسيهز صديقه رأسه بلطف حين ينزلق المطر إلى الأسفل على زجاج النافذة.

3 حزيران 1905

تخيّل عالماً يعيش فيه البشر يوماً واحداً فقط. إمـا أن تُسرّع نسبة دقات القلب والتنفس بحيث تضغط فترة حياة كاملة إلى ما يعادل دورة واحدة للأرض على محورها، أو يُخفّف دوران الأرض إلى السرعة البطيئة[1] بحيث أن دورة واحدة تستغرق حياة بشرية كاملة. التفسيران صحيحان، وفي كلتا الحالتين يرى الرجل أو المرأة شروقاً واحداً، غروباً واحداً.

---

[1] أو السرعة الأولى.

لا أحد في هذا العالم يعيش ليشهد تعاقب الفصول. إن شخصاً يولد في أية بلاد أوروبية في كانون الأول، لا يرى أبداً الناردين والزنبق، نبات النجمية، قرن الغزال والشريف الأبيض[٢]، لا يشاهد أبداً أوراق القيقب وهي تتلون بالأحمر والذهبي، لا يسمع أبداً أصوات الجنادب أوتغريد الطيور. الشخص الذي يولد في كانون الأول يعيش حياته في البرد. كذلك، امرأة تولد في تموز لا تشعر أبداً بندفة ثلج على خدها، لا تشاهد أبداً الكريستال على بحيرة متجمدة، لا تسمع أبداً صرير الأبواط على الثلج الطري. امرأة تولد في تموز تعيش حياتها في الدفء. ويُعرف عن تنوع الفصول من خلال الكتب.

الضوء يخطط الحياة في هذا العالم، ولذلك فإن الشخص الذي يولد عند الغروب يمضي النصف الأول من حياته في الليل، يتعلم مهناً داخلية كالحياكة وصناعة الساعات، يقرأ كثيراً، يصبح مفكراً، يأكل كثيراً، يخاف من الظلمة الشاملة في الخارج، يحرث

---

[٢] نبات جبلي من الفصيلة المركبة له أوراق مستطيلة تحف بأزهاره.

الظلال. أما الذي يولد عند شروق الشمس يتعلم مهناً خارجية كالزراعة والبناء، يصبح قوي البنية، يتجنب الكتب والمشاريع الذهنية، يكون مشرقاً ولا يخش أي شيء.

يتعثر كل من أطفال الغروب والشروق حين يتبدل الضوء. حين يأتي الشروق ينصعق الذين ولدوا عند الغروب من المنظر المفاجئ للأشجار والبحار والجبال، يعميهم ضوء النهار، يعودون إلى منازلهم ويغطون نوافذهم، يمضون نصف حياتهم في الضوء الخافت. حين يأتي الغروب، يعول الذين ولدوا عند الشروق على اختفاء الطيور من السماء وطبقات الزرقة من البحر والحركة المخدرة للغيوم.

يعولون ويرفضون تعلم الحرف المظلمة الداخلية، يستلقون على الأرض وينظرون إلى الأعلى ويصارعون ليشاهدوا ما شاهدوه مرة.

في هذا العالم الذي تستمر فيه الحياة البشرية يوماً واحداً ينتبه البشر إلى الزمن كقطط تجهد لتسمع الأصوات في العلية. ذلك أنه لا يوجد زمن يفقدونه. الولادة، الدراسة، علاقات الحب، الشيخوخة، المهنة،

كل هذه الأشياء يجب أن تتلاءم مع انتقال واحد للشمس، تعديل واحد للضوء. حين يمر البشر في الشارع، يرتدون قبعاتهم ويسرعون إلى المنزل. حين يلتقي البشر في المنازل، يتحققون باحترام عن صحة بعضهم البعض ثم ينصرفون إلى شؤونهم. حين يتجمع البشر في المقاهي يدرسون بعصبية تنقل الظلال ولا يجلسون طويلا. الزمن ثمين جداً. الحياة لحظة في فصل، الحياة سقطة ثلج واحدة. الحياة يوم خريفي واحد. الحياة هي الحافة الرقيقة السريعة لظل باب يُغلق، الحياة لحظة قصيرة من الأذرع والأرجل.

حين تأتي الشيخوخة سواء في الضوء أو في الظلمة، يكتشف المرء أنه لا يعرف أحداً. لم يكن هناك زمن. تلاشى الآباء والأمهات في منتصف النهار أو منتصف الليل، انتقل الأخوة والأخوات إلى مدن بعيدة للقبض على فرص عابرة، تغير الأصدقاء مع تغير زاوية الشمس، خُطِّطت المنازل والبلدات والوظائف والعشاق لتتناسب مع حياة أُطِّرت في يوم واحد.

إن شخصاً في الشيخوخة لا يعرف أحداً، يتحدث مع الناس لكنه لا يعرفهم، تتبعثر حياته في شظايا

الحديث وتنساها شظايا البشر، تنقسم حياته إلى حوادث مسرعة تشهدها قلة. يجلس إلى طاولته التي قرب الفراش ويصغي إلى صوت حمامه المتدفق بالماء ويتساءل إن كان أي شيء قد وجد خارج ذهنه. هل وجد حقاً ذلك العناق الذي عانقته إياه أمه؟ هل وجدت حقاً تلك المنافسة المضحكة مع صديق مدرسته؟ هل وجدت حقاً تلك النقزة الأولى من ممارسة الجنس؟ هل وجدت عشيقته؟ أين هذه الأشياء الآن؟ أين هي الآن، وهو يجلس إلى طاولة فراشه مصغياً إلى صوت حمامه المتدفق مدركاً بغموض التبدل في الضوء.

5 حزيران 1905

إن وصف موقع ومظهر الأنهار والأشجار والأبنية والبشر سيظهر أن كل شيء مشترك. ينعطف نهر آري يساراً، منقطاً بزوارق تحمل البطاطا والشوندر السكري. ينقط صنوبر الآرولا التلال السفحية لجبال الألب، تنحني الأغصان المحملة بالثمار المخروطية الشكل إلى الأعلى كأذرع الشمعدان. تتوضع المنازل المؤلفة من ثلاثة طوابق والسقوف القرميدية الحمراء والنوافذ العمودية الناتئة هادئة في «آرستراس» مطلة على النهر. يلوح

البقالون في «السوق» بأذرعهم لجميع العابرين منادين على المناديل والساعات الرائعة والبندورة والخبز المالح والشمار. تعبق الجادات برائحة اللحم المجفف. يقف رجل وامرأة على شرفة منزلهما في شارع «كرام» يتجادلان ويبتسمان أثناء المجادلة. تسير فتاة شابة ببطء عبر الحديقة في «كلاينشانسا». ينفتح باب مكتب البريد الضخم المصنوع من الخشب الأحمر وينغلق، ينفتح وينغلق. ينبحُ كلب.

ولكن إذا شوهد بعيني أي شخص يبدو المشهد مختلفاً تماماً. مثلاً، تشاهد امرأة تجلس على ضفة نهر آري القوارب تعبر بسرعة كبيرة وكأنها تتحرك على زلاجات عبر الجليد. بالنسبة لامرأة أخرى، تبدو القوارب بطيئة لا تكاد تلف المنعطف طوال بعد الظهر كله. ينظر رجل واقف في «آرستراس» إلى النهر ليكتشف أن الزوارق تتحرك في البداية إلى الأمام ثم إلى الخلف.

تتكرر هذه الفروقات في مكان آخر. يسير صيدلاني عائداً إلى محله في شارع «كوخر» بعد أن تناول وجبة الظهر. هذه هي الصورة التي يشاهدها: تعدو امرأتان وتعبرانه، تهزان ذراعيهما بوحشية وتتحدثان بسرعة

بحيث لا يفهم ما تقولانه. يركض محام عبر الشارع إلى موعد في مكان ما، يهتز رأسه جيئة وذهاباً كرأس حيوان صغير. تندفع كرة يقذفها طفل من شرفة كرصاصة، سحابة لا تكاد ترى. لُمح سكان شارع 82 لتوهم عبر نافذتهم يطيرون في المنزل من غرفة إلى أخرى، يجلسون لحظةً، يتناولون وجبة في دقيقة واحدة، يختفون، يعيدون الظهور. تجتمع الغيوم التي في الأعلى، تنفصل، تجتمع ثانية مع حركة الشهقات والزفرات المتعاقبة.

في الجانب الآخر من الشارع يلاحظ الخباز المشهد نفسه. يشاهد امرأتين تطوفان في الشارع بتمهل، تتوقفان للتحدث مع محامٍ ثم تسيران. يدخل المحامي إلى شقة في شارع 82، يجلس إلى طاولة لتناول الغداء، يسير إلى نافذة الطابق الأول حيث يمسك كرة قذفها طفل من الشارع.

وبالنسبة لشخص يقف تحت حامل مصباح في شارع «كوخر» لا تمتلك الحوادث حركة على الإطلاق: امرأتان، محام، كرة، طفل، ثلاثة قوارب، داخل شقة، كل هذه الأشياء تشاهد كلوحات في ضوء الصيف المتألق.

والأمر مشابه مع أي تعاقب للأحداث في هذا العالم حيث الزمن حاسّة.

في عالم يكون فيه الزمن حاسة كالبصر أو الذوق، قد يصبحُ تعاقب الأحداث سريعاً أو بطيئاً، باهتاً أو متوتراً، مالحاً أو عذباً، سببياً أو بدون سبب، منظماً أو عشوائياً، وفق التاريخ السابق للمشاهدة.

يجلس الفلاسفة في مقاهي شارعٍ «أمتهاوس» ويتجادلون إن كان الزمن قد وجد فعلا خارج الإدراك الحسي البشري. من يستطيع أن يقول إن الحدث يحدث بسرعة أم ببطء، بسبب أو بدون سبب، في الماضي أو في المستقبل؟ من يستطيع أن يقول إنّ الحوادث تحصل؟ يجلس الفلاسفة بأعين نصف مغمضة ويقارنون علوم جمالهم المتعلقة بالزمن.

يولد بعض البشر دون أي حس بالزمن. فيزداد إحساسهم بالمكان إلى درجة معذبة. يستلقون على الأعشاب الطويلة ويسألهم شعراء ورسامون من جميع أنحاء العالم. هؤلاء الذين يديرون أذناً صماء للزمن يتم التوسل إليهم ليصفوا الموقع الدقيق للأشجار في الربيع، شكل الثلج على جبال الألب، زاوية الشمس على

كنيسة، موقع الأنهار، موضع الطحالب، نموذج الطيور في سرب، مع ذلك الذين يديرون أذناً صماء للزمن لا يقدرون على قول ما يعرفونه. ذلك أن الكلام يتطلب تعاقب كلمات منطوقة في الزمن.

9 حزيران 1905

تخيل أن البشر يعيشون إلى الأبد:

ينقسم سكان كل مدينة إلى سكان فيما بعد وسكان الآن.

يفكر سكان فيما بعد أنه لا توجد عجلة لبدء دروسهم الجامعية ولتعلم لغة ثانية ولقراءة فولتير أو نيوتن، للبحث عن ترقية في وظائفهم، للحب، لتأسيس أسرة. ثمة فترة زمنية لانهائية لكل هذه الأشياء. في الزمن اللانهائي يمكن إنجاز جميع الأشياء. وهكذا بوسع

الأشياء أن تنتظر. وفي الحقيقة يؤدي الإستعجال إلى ارتكاب الأخطاء. ومن يستطيع أن يجادل منطقهم؟ يمكن التعرف على سكان فيما بعد في أي حانوت أو رواق. يمشون مشية خفيفة رشيقة ويرتدون ثياباً فضفاضة، يستمتعون بقراءة أية مجلات مفتوحة أو يعيدون ترتيب الأثاث في منازلهم أو ينزلقون في المحادثة بالطريقة التي تسقط فيها ورقة عن شجرة. يجلس سكان فيما بعد في المقاهي يحتسون القهوة ويناقشون إحتمالات الحياة.

يرى سكان الآن أنهم يستطيعون أن يفعلوا أي شيء يتخيلونه بحيواتٍ لانهائية. سيتعلمون عدداً لانهائياً من المهن، سيتزوجون عدداً لانهائياً من المرات، سيبدلون سياستهم دائماً. سيصبح كل شخص محامياً، أجّاراً، كاتباً، محاسباً، رساماً، فيزيائياً، مزارعاً. يقرأ سكان الآن باستمرار كتباً جديدة، يدرسون مهناً جديدة، لغات جديدة. ومن أجل أن يتذوقوا لانهائيات حيواتهم يبدؤون باكراً ولا يتقاعسون أبداً. ومن يستطيع أن يشكك بمنطقهم؟ يتحرك بروفسورات الجامعة، الأطباء والممرضات، البشر الذين يهزون أرجلهم باستمرار أينما

جلسوا، عبر تعاقب حيوات متلهفين ألا يفقدوا شيئاً.
حين يلتقي إثنان من سكان الآن يلتقيان قرب عمود نافورة تسيرغنا سداسي الأضلاع، يقارنان الحيوات التي أتقناها، يتبادلان المعلومات والنظرات إلى ساعتيهما.
حين يلتقي إثنان من سكان فيما بعد في الموضع نفسه يتساءلان عن المستقبل ويتابعان القطع المكافئ للماء ببصرهما.

يشترك سكان الآن وسكان فيما بعد في شيء واحد: الحياة اللانهائية تنتج قائمة من الأقرباء لا نهاية لها. لا يموت الأجداد أبداً ولا أجداد الأجداد ولا عمات وأعمام الآباء ولا عمات العمات وقس على ذلك طوال الأجيال.
يبقى الجميع أحياء ويقدمون النصائح. لا ينجو الأبناء أبداً من ظلال آبائهم ولا البنات من ظلال أمهاتهم. لا يستقل أي شخص أبداً.

حين يبدأ إنسان مشروعاً يشعر أنه مجبر على أن يتحدث عنه مع والديه وجديه ووالدي جديه إلى ما لانهاية، ليتعلم من أخطائهم. ذلك أنه لا يوجد مشروع جديد. جُرِّبت جميع الأشياء سابقاً في شجرة العائلة. وفي الحقيقة، أنجزت جميع الأشياء، ولكن مقابل ثمن.

ذلك أنه في عالم كهذا تحدّد قلّة الطموح تعدّد الإنجازات

وحين تحتاج الإبنة إلى توجيه من أمها، لا تستطيع أن تحصل عليه نقياً: أمها يجب أن تسأل أمها وهكذا إلى الأبد. وكما لا يستطيع الأبناء والبنات أن يتخذوا قراراتهم الخاصة، لا يستطيعون أن يلجأوا إلى آبائهم وأمهاتهم من أجل نصيحة ثقة. وليس الآباء والأمهات مصدر اليقين، ثمة مليون مصدر.

حيث يجب أن يُنوع كل فعل مليون مرة، تكون الحياة تجريبية تبنى الجسور إلى منتصفها فوق الأنهار ثم يتوقف بناؤها فجأة. ترتفع الأبنية تسعة طوابق لكنها لا تمتلك سقوفاً. مؤن البقال من الزنجبيل والملح وسمك البقلاي ولحم البقر تتغير مع كل تغيير للرأي وكل استشارة. الجمل لا تكتمل. تنتهي الخطبة قبل أيام من حفلة الزفاف. وفي الجادات والشوارع يدير البشر رؤوسهم ويحدقون إلى الوراء ليشاهدوا من الذي يراقبهم من أفراد العائلة.

هذه هي كلفة الخلود. لا شخص كاملاً، لا شخص حراً. مع مرور الزمن، قرر البعض أن الطريقة الوحيدة

للحياة هي الموت. في الموت يتحرر الرجل أو المرأة من ثقل الماضي، تغوص هذه الأرواح القليلة، على مرأى من أقربائها، في بحيرة «كونستانس» أو تقذف نفسها عن «مونت ليما» منهية حيواتها. بهذه الطريقة غزا المنتهي اللامنتهي، أذعنت ملايين فصول الخريف لغياب فصول الخريف، ملايين الثلجات لغياب سقوط الثلج، ملايين النصائح والتحذيرات لغياب النصائح والتحذيرات.

10 حزيران 1905

تخيّل أن الزمن نوع وليس كماً كمثل الإضاءة الليلية فوق الأشجار حين يلمس قمرٌ طالعٌ خط الشجرة. الزمن يوجد لكنه لا يمكن أن يُقاس.

الآن، في بعد ظهر مشرق، تقف امرأة وسط ساحة بانهوفبلاتز منتظرة لقاء رجل. منذ فترة شاهدها في القطار المتوجه إلى «فرايبورغ»، تسمر في مكانه وطلب أن يأخذها إلى حدائق «كلاينشانسا»، ومن إلحاح صوته ونظرة عينيه عرفت المرأة أنه يعني حالاً. وهكذا تنتظره

لكن ليس بفارغ صبر بل تمضي الوقت في قراءة كتاب. فيما بعد، ربما في اليوم التالي، يصل. يشبكان ذراعيهما ويسيران إلى الحدائق، يطوفان قرب تجمع الزنبق والورود و«المارتاغون» وحشيشة الأسد الألبية، يجلسان على مقعد أبيض من خشب الأرز فترة غير قابلة للتحديد. يخيم المساء، يحدده تبدّل في الضوء واحمرارٌ في السماء. يتبع الرجل والمرأة ممراً ملتوياً من الأحجار البيضاء الصغيرة ويصعدان إلى مطعم يقع على تلة. هل كانا مع بعضهما فترة حياة أم لحظة فقط؟ من يستطيع أن يجيب؟

تشاهد الأم ابنها من خلال نوافذ المطعم المرصصة جالساً مع المرأة. تعصر يديها وتُعْول لأنها تريد ولدها في المنزل. تراه كطفل. هل مرّ أي زمن منذ أن عاش في المنزل ولعب بالكرة وحكّ ظهر أمه قبل النوم؟ تشاهد الأم تلك الضحكة الطفولية بادية في ضوء الشمعة من خلال نوافذ المطعم المرصصة وهي متأكدة أن الزمن لم يمر، أن ابنها، طفلها، ينتمي إليها في المنزل. تنتظر في الخارج وهي تعصر يديها بينما يتقدم ابنها في السن بسرعة في حميمية ذلك المساء وتلك المرأة التي التقى بها.

في الجانب الآخر من شارع أربيرغا، يتجادل رجلان حول شحنة أدوية. المتلقي غاضب لأن الأدوية التي تملك حياة قصيرة على الرف وصلت بعد أوانها وفاقدة للفعالية. كان يتوقعها منذ فترة طويلة وفي الحقيقة كان ينتظرها في محطة القطار لبعض الوقت أثناء مجيء وذهاب السيدة الشائبة في شارع شبيتال، أثناء نماذج عديدة للضوء على جبال الألب، عبر تبدلات الجو من الدفء إلى البرودة إلى الرطوبة. أهينَ المرسل السمين ذو الشارب. لقد عبأ المواد الكيماوية في مصنعه في مدينة «بال» حالما سمع ظلات الحوانيت تُرفع في السوق. حمل الصناديق إلى القطار بينما كانت الغيوم ما تزال في المواضع نفسها كما حدث حين وُقِع العقد. ماذا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك؟

في العالم الذي لا يمكن فيه قياس الزمن لا توجد ساعات أو تقاويم أو مواعيد محددة. تولد الأحداث أحداث أخرى لا الزمن. يُشْرع في بناء منزل حين تصل الأحجار وألواح الخشب إلى موقع البناء. يرسل المحجر أحجاراً حين يحتاج عامل المحجر إلى النقود. يغادر المحامي منزله ليناقش قضية في المحكمة العليا حين

تنكّتُ ابنته على صلعه المتزايد. تُختتم الدراسة في الجمنازيو في بيرن حين ينجح الطالب في الامتحانات. تغادر القطارات المحطة في ساحة «بانهوفبلاتز» حين تمتلئ العربات بالمسافرين.

في العالم الذي يكون فيه الزمن نوعاً يسجّل الأحداث لون السماء، نبرة صرخة المراكبي في نهر آري، شعور السعادة أو الخوف حين يدخل امرؤ غرفة. إن ولادة طفل وبراءة اختراع ولقاء شخصين ليست هذه نقاطاً ثابتة في الزمن تحددها الساعات والدقائق. بدلاً من ذلك، تنزلق الأحداث عبر فضاء المخيلة وتجسّدها نظرة أو رغبة. كذلك يكون الوقت بين حدثين طويلاً أو قصيراً وفق خلفية الأحداث المتغايرة، حدة الإشراق، درجة الضوء والظل، وجهة نظر المشاركين.

يحاول بعض البشر أن يجعلوا الزمن كمياً أن يحللوه، أن يشرّحوه. يتحجّرون. تقف أجسادهم جامدة وباردة وصلبة وثقيلة في زوايا الشارع. تؤخذ هذه الأجساد مع مرور الزمن إلى عامل المحجر الذي يقطعها بشكل مستوٍ إلى قطع متساوية ويبيعها للمنازل حين يحتاج نقوداً.

11 حزيران 1905

ثمة مقهى رصيفي صغير يحتوي ست طاولات زرقاء وصفاً من نبات البطومة الأزرق في صندوق نافذة الشيف ويقع هذا المقهى في زاوية شارع كرام و«مسرح بلاتز». يستطيع المرء أن يشاهد من هذا المقهى ويسمع كلّ «بيرن». يندفع البشر عبر الأروقة المقنطرة في «شارع كرام»، يتحدثون ويتوقفون لشراء الكتّان أو ساعات اليد أو القرفة، تتبع مجموعة من طلاب مدرسة القواعد في شارع كوخر مدرّسها في صف واحد عبر الشوارع إلى

ضفاف نهر آري بعد أن سُمح لها بالخروج من أجل استراحة الصباح، يتصاعد الدخان ببطء من طاحونة فوق النهر، يخرخر الماء المندفع من أنابيب نافورة تسيرغنا، تدق ساعة البرج العملاقة في شارع كرام معلنة ربع الساعة.

إذا تجاهل المرء للحظة أصوات وروائح المدينة سيشاهد منظراً مهماً: رجلان في زاوية شارع كوخر يحاولان أن ينفصلا بيد أنهما لا يستطيعان وكأنهما لن يشاهدا بعضهما مرة ثانية. يودعان بعضهما، يبدآن السير في اتجاهين متعاكسين ثم يسرعان إلى بعضهما ويتعانقان. في الجوار تجلس امرأة متوسطة العمر على حافة نافورة حجرية وتبكي بصمت. تمسك الحجر بيديها الصفراوين الملطختين، تمسكه بشدة بحيث يندفع الدم من يديها وتحدق بيأس إلى الأرض. تمتلك عزلتها ديمومة شخص يعتقد أنه لن يرى بشراً آخرين مرة أخرى. امرأتان ترتديان كنزتين تطوفان في شارع كرام، تشبكان ذراعيهما وتضحكان بتهتك يوحي بأنهما لا تفكران بالمستقبل إطلاقاً.

في الحقيقة، هذا عالم بدون مستقبل. الزمن في هذا العالم خط يتلاشى في الحاضر واقعياً وذهنياً. لا أحد في

هذا العالم يقدر أن يتخيل المستقبل. إن تخيل المستقبل ليس ممكناً مثله مثل رؤية ألوان وراء البنفسجي: لا تقدر العين أن تدرك ما يكمن وراء النهاية المرئية للطيف. في عالم بلا مستقبل كلّ انفصال للأصدقاء هو موت. في عالم بلا مستقبل كل عزلة هي نهائية. في عالم بلا مستقبل كل ضحكة هي الضحكة الأخيرة في عالم بلا مستقبل يتعلق البشر بالحاضر وكأنهم على حافة جرفٍ.

إن امرءاً لا يستطيع أن يتخيل المستقبل هو امرؤٌ لا يقدر أن يتأمل نتائج أفعاله. وهكذا يُشَلُّ البعض في حالة اللافعل، يستلقون في أسرتهم طوال النهار مستيقظين بيد أنهم يخافون من ارتداء ملابسهم، يحتسون القهوة وينظرون إلى الصور. يقفز آخرون من الأسرة في الصباح غير آبهين بأن كل فعل يقود إلى العدم وبأنهم لا يستطيعون أن يضعوا لحياتهم مخططاً. يعيشون لحظة بعد لحظة وكل لحظة هي مكتملة. وثمة آخرون يستبدلون المستقبل بالماضي: يستعيدون كل ذكرى، كل فعل سبق وأنجز، كل سبب ونتيجة ويندهشون كيف أرسلتهم الحوادث إلى هذه اللحظة، اللحظة الأخيرة للعالم، نهاية الخط الذي هو الزمن.

في المقهى الصغير الذي يحوي ست طاولات وصف بطّومة يجلس شاب ويتناول القهوة والفطائر. كان يراقب الشارع بكسل. لقد شاهد المرأتين الضاحكتين اللتين ترتديان كنزتين والمرأة المتوسطة العمر عند النافورة والصديقين اللذين يواصلان توديع بعضهما. وبينما هو جالس تشق سحابة ممطرة طريقها فوق المدينة. لكن الشاب يبقى جالساً إلى طاولته. يستطيع أن يتخيل الحاضر فقط والحاضر في هذه اللحظة سماء تدلهم ولكن بدون مطر. وبينما هو يحتسي القهوة ويأكل الفطائر يُدهشه كم هي معتمة نهاية العالم. والمطر لا يتساقط ويقعي وهو يقرأ جريدته في الضوء المتناقص محاولاً أن يقرأ السطر الأخير الذي سيقرأه في حياته. ثم ينهمر المطر. يدخل الشاب، ينزع سترته المبللة، يدهشه كيف ينتهي العالم تحت المطر. يناقش الطعام مع الشيف لكنه لا ينتظر توقف المطر لأنه لا ينتظر أي شيء. في عالم بلا مستقبل كل لحظة هي نهاية العالم. بعد عشرين دقيقة تعبر السحابة السوداء، يتوقف المطر وتصحو السماء. يعود الشاب إلى طاولته، يدهشه كيف ينتهي العالم في ضوء الشمس.

15 حزيران 1905

الزمن بُعْدٌ مرئي في هذا العالم. وكما يستطيع المرء أن ينظر بعيداً ويرى المنازل والأشجار وقمم الجبال التي هي علائم في المكان، يستطيع أن ينظر في اتجاه آخر ويرى الولادات والزواج والموت التي هي علائم في الزمن وتمتد بغموض إلى المستقبل البعيد.

وكما يمكن أن يختار المرء البقاء في مكان أو الذهاب إلى مكان آخر، يمكنه أن يختار حركته على طول محور الزمن. يخاف بعض البشر من السفر بعيداً عن لحظة

مريحة. يبقون قريبين من موقع واحد مؤقت لا يكادون يعبرون مناسبة مألوفة. يركض آخرون بخفة وطيش إلى المستقبل دون استعداد لتعاقب الأحداث العابرة السريع.

يجلس في المعهد العلمي العالي في زوريخ شاب وأستاذه المشرف في مكتبة صغيرة ويناقشان بهدوء عمل الشاب بينما النار تلتهب في الموقد ذي اللوح الرخامي الأبيض. يجلس الشاب وأستاذه المشرف على كرسيي بلوط مريحين قرب طاولة مستديرة تنتشر عليها صفحات الحسابات. كان البحث صعباً. كان الشاب يقابل أستاذه مرة كل شهر في الأشهر الثمانية الماضية في هذه الغرفة ويطلب منه التوجيه والأمل ثم يذهب ليعمل شهراً آخر ويعود بأسئلة جديدة. كان البروفسور يجيب على الأسئلة دائماً. واليوم أيضاً يشرح البروفسور وبينما هو يتحدث، يحدق الشاب إلى الخارج عبر النافذة، يدرس طريقة تعلق الثلج بشجر التنوب القريب من البناء ويتساءل كيف سيرتب أموره حالما يحصل على شهادته. جالساً على كرسيّه، يخطو الشاب متردداً إلى الأمام في الزمن، يخطو دقائق فقط في المستقبل ويرتجف من البرد وغياب اليقين. ينسحب عائداً. من الأفضل البقاء في هذه

اللحظة قرب النــار الدافئة والمساعدة الكريمـة لأستاذه المشـرف. مـن الأفضل التوقـف عـن الحركـة في الزمـن. وهكذا، في هذا اليوم يبقى الشـاب في المكتبـة الصغيرة. يعبره أصدقاؤه، ينظرون مدة وجـيزة ليشـاهدوه واقفاً في هذه اللحظة ثم يتـابعون السير إلى المستقبل بخطواتهـم الخاصة.

في «فيكتورياسـتراس» في بــيرن، تسـتلقي شـابة في سـريرها. تدخـل أصوات شـجار والديهـا إلى غرفتهــا، تغطي أذنيها وتحدق إلى صورة تتوضع على طاولتها، إلى صورتهـا حـين كـانت طفلـة تجلـس علـى الشـاطئ مـع والديها. يستند إلىأحد الجدران صندوق كستنائي اللـون. يتوضع حوض غسيل من البورسلان على المكتــب. طـلاء الجدران الأزرق متقشر ومتشقق. عنــد قـدم سـريرها ثمـة حقيبة مفتوحة ممتلئة حتى منتصفها بالثياب. تحدق إلى الصورة ثم خارجـاً إلى الزمـن. المستقبل يناديهـا. تتخـذ قرارها. وبدون أن تنهي حزم أغراضها تندفع خارجة من المنزل، من تلك النقطة في حياتها، وتتجه بشكل مستقيم إلى المستقبل. تعبر عاماً، خمسـة أعـوام، عشـرة أعـوام، عشرين عاماً وفي النهاية تفرمل، لكنهـا تتحـرك بسـرعة

بحيث أنها لا تستطيع أن تبطئ حتى تبلـغ الخمسين.
تتعاقب الأحداث أمام بصرها لكنهـا لا تكـاد تشـاهدها:
محام أصلح أحبلها ثم غادر، ضبـاب عـام في الجامعـة،
شـقة صغـيرة في لـوزان لفـترة مـن الوقـت، صديقـة في
فرايبورغ، زيارات متقطعة لوالديها اللذيـن شـابا، غرفـة
المستشـفى الـتي توفيـت أمهـا فيهـا، الشـقة الرطبـة في
زوريخ، رائحة الثـوم، حيـث تـوفي والدهـا، رسـالة مـن
ابنتها التي تعيش في مكان ما من إنكلترة.

تحبس المرأة نَفَسها. إنهـا في الخمسين. تسـتلقي في
سريرها، تحاول أن تتذكر حياتهـا، تحـدق إلى صورتهـا
كطفلة تجلس على الشاطئ مع أمها وأبيها.

17 حزيران 1905

إنه صباح الثلاثاء في «بيرن». يصيح الخباز ذو الإصبع السميكة في السوق على امرأة لم تدفع فاتورتها الأخيرة، يخبط بذراعيه بينما تضع هي الرغيف المحمّص في حقيبتها. خارج حانوت الخباز يتزلج ولد وراء كرة قذفت من نافذة طابق أول. زلاّجتاه تتكتكان على الشارع الحجري. في الطرف الشرقي من «السوق» حيث ينضم الشارع إلى «شارع كرام» يقف رجل وامرأة قرب بعضهما في ظل رواق مقنطر. يعبر رجلان حاملين

جرائد تحت ذراعيهما. وعلى بعد ثلاثمائة متر إلى الجنوب يحلق طائر فوق نهر آري بكسل.

يتوقف العالم.

يتجمد فم الخباز في منتصف الجملة. يقف الطفل في منتصف الخطوة، تتوقف الكرة في الجو. يصبح الرجل والمرأة تمثالين تحت الرواق المقنطر. يتحول الرجلان إلى تمثالين وتتوقف محادثتهما وكأن إبرة فونوغراف رُفعت. يتجمد الطائر ويثبت معلقاً فوق النهر كقطعة ديكور على خشبة مسرح.

بعد جزء واحد من مليون جزء من الثانية يعود العالم إلى الحركة. يواصل الخباز صراخه وكأن شيئاً لم يحدث. يندفع الطفل وراء الكرة ويزداد اقتراب الرجل والمرأة من بعضهما ويتابع الرجلان النقاش حول ارتفاع الأسعار في سوق لحم البقر. يحرك الطائر جناحيه ويتابع طيرانه القوسي فوق نهر آري.

بعد دقائق يتوقف العالم ثانية، ثم يتحرك. يتوقف. يتحرك.

ما هذا العالم؟

ليس الزمن في هذا العالم مستمراً. الزمن متقطع في هذا العالم. الزمن هو تمددٌ للأنسجة العصبية: يبدو متواصلاً من بعيد ومتقطعاً من قريب، وثمة ثغرات ميكروسكوبية بين الأنسجة. يتدفق الفعل العصبي عبر جزء واحد من الزمن، يثبت فجأة، يتوقف، يقفز في فراغ ثم يستأنف مسيره في جزء مجاور.

ضئيلة جداً الإنقطاعات في الزمن بحيث يجب أن تتمغنط ثانية واحدة وتُشَرّح إلى ألف جزء قبل أن يحدَّد جزء واحد مفقود من الزمن. ضئيلة هي الإنقطاعات في الزمن بحيث أن الثغرات بين الأجزاء لا تُدرك. بعد كل إعادة بدء للزمن، يبدو العالم الجديد مثل القديم تماماً. تظهر مواقع وحركات الغيوم كما هي بالضبط وأيضاً مسارات الطيور وتدفق الأحاديث والأفكار.

لا تتلاءم أجزاء الزمن مع بعضها بشكل مكتمل. أحياناً تحدث انزياحات ضئيلة جداً. مثلاً، في يوم الثلاثاء هذا في بيرن، يقف شاب وشابة تحت مصباح شارع «غيربرن». تقابلا منذ شهر. يحبها بتهور لكنه سحق سابقاً على يد امرأة تركته دون تحذير وهو خائف الآن من الحب. يجب أن يتأكد من هذه المرأة. يتفحص

وجهها، يتوسل إليها بصمت لتظهر مشاعرها الحقيقية، يبحث عن أدنى إشارة، عن أدنى حركة لحاجبها، عن أقل احمرار لخديها وعن نداوة عينيها.

تبادله المرأة المشاعر نفسها لكنها لا تستطيع أن تعبر عن حبها في كلمات. بدلاً من ذلك، تبتسم له غير مدركة لخوفه. وبينما يقفان تحت مصباح الشارع يتوقف الزمن ثم يتحرك. فيما بعد، ميلان رأسيهما هو نفسه بالضبط، دورة خفقان قلبيهما هي نفسها، لكن، في مكان ما، في البرك العميقة لذهن المرأة ظهرت فكرة باهتة لم تكن هناك من قبل. تصل المرأة الشابة إلى هذه الفكرة الجديدة، إلى لاشعورها وبينما هي تفعل ذلك يعبر فراغ واهٍ ابتسامتها. ورغم أن هذا التغير يستعصي إلا على التمحيص الدقيق، لاحظه الشاب واعتبره إشارته. يخبر المرأة أنه لا يستطيع أن يراها مرة أخرى، يعود إلى شقته الصغيرة في شارع تسويغهاوس، يقرر أن ينتقل إلى زوريخ ويعمل في مصرف عمه. تسير المرأة ببطء إلى منزلها مبتعدة عن حامل المصباح في شارع «غيربرن» وتتساءل لماذا لم يحبها الشاب.

فاصل

يجلس آينشتاين وبيسو في قارب صغير راس في النهر. يأكل بيسو سندويشة جبنة بينما ينفث آينشتاين دخان غليونه ويعدّ طُعماً ببطء.

سأل بيسو الذي لم يذهب إلى الصيد مع آينشتاين من قبل:

«هل تصطاد عادة أي شيء هنا، من قارب صغير وسط نهر آري؟

يجيب آينشتاين الذي يتابع الرمي: «أبداً».

«ربما يجب أن نقترب من الشاطئ إلى ذلك القصب؟

يجيب آينشتاين: «نستطيع، لم أصطد أي شيء هناك أبداً. ألديك سندويشة أخرى في الحقيبة؟

يقدّم بيسو سندويشة وزجاجة بيرة لآينشتاين، يشعر بالذنب لأنه طلب من صديقه أن يأخذه في بعد ظهر الأحد هذا. كان آينشتاين يخطط ليذهب وحيداً كي يفكر.

يقول بيسو: «كُلْ. تحتاج إلى استراحة من سحب كل هذا السمك»؟

يخفض آينشتاين طعمه إلى حضن بيسو ويبدأ تناول السندويشة. لوهلةٍ يصمت الصديقان. يعبرهما قارب صغير محدثاً تموجاً أدى إلى اهتزاز القارب.

بعد الغداء يزيح آينشتاين المقاعد التي في القارب ويتمدد الصديقان على ظهريهما وينظران إلى السماء. لقد تخلى آينشتاين عن الصيد.

يسأل آينشتاين: «أية أشكال ترى في الغيوم يا ميشيل؟

«أرى عنزة تطارد رجلاً عابساً».

«أنت رجل عملي يا ميشيل».

يحدق آينشتاين بالغيوم لكنه يفكر بمشروعه. يريد أن يخبر بيسو عن أحلامه، لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك.

يقول بيسو: «أعتقد أنك ستنجح في نظريتك في الزمن وحين يحصل هذا سنأتي إلى الصيد وتشرحها لي. حين تصبح مشهوراً ستتذكر أنك أخبرتني قبل أي شخص آخر هنا في هذا القارب».

يضحك آينشتاين وتهتز الغيوم من ضحكه.

18 حزيران 1905

متدفقاً من كاتدرائية في وسط روما يمتد رتل من عشرة آلاف إنسان منتشراً نحو الخارج كعقرب ساعة عملاقة ويتجه إلى حافة المدينة وما وراءها. ورغم ذلك، هؤلاء الحجاج الصبورون موجّهون نحو الداخل وليس إلى الخارج. ينتظرون دورهم ليدخلوا معبد الزمن. ينتظرون لينحنوا للساعة العظيمة. قطعوا مسافات طويلة وجاؤوا من بلدان أخرى ليزوروا هذا المعبد. يقفون الآن بهدوء بينما يزحف الرتل إلى الأمام عبر شوارع نظيفة. يقرأ

البعض في كتب صلواتهم ويحمل البعض الآخر أطفالاً، بينما يأكل آخرون ثمار التين أو يشربون الماء. وبينما هم ينتظرون، يبدون متناسين لمرور الزمن. لا ينظرون إلى ساعات أيديهم لأنهم لا يمتلكون ساعات. لا يصغون لدقات ساعة البرج لأن ساعات البرج غير موجودة. ساعات اليد وساعات الحائط ممنوعة باستثناء الساعة العظيمة التي في معبد الزمن.

ينتصبُ داخل المعبد إثنا عشر حاجاً في حلقة حول الساعة العظيمة ويقف كل حاج على كل علامة للساعة، على الشكل المعدني والزجاجي الضخم. داخل دائرتهم، يتأرجح بندول برونزي كبير يرتفع إثني عشر متراً ويتوهج في ضوء الشمعة. ينشد الحجاج مع كل فترة للبندول، ينشدون مع كلِ زيادة زمنية مُقاسة. ينشد الحجاج مع كل دقيقة تنتزع من حيواتهم. هذه هي تضحيتهم.

بعد أن يقضوا ساعة أمام الساعة العظيمة يغادر الحجاج ويصطف إثنا عشر حاجاً آخر من خلال البوابات المرتفعة. استمر هذا الموكب قروناً.

منذ وقت طويل، قبل الساعة العظيمة، كان الزمن يقاس من خلال التبدلات التي تطرأ على الأجرام السماوية: المسار البطيء للنجوم عبر سماء الليل، تقوّس الشمس وتنوع الضوء، ازدياد ونقص القمر، المد، الجزر، الفصول. كان الزمن يقاس أيضاً بدقات القلوب وإيقاعات النعاس والنوم والشعور بالجوع والدورات الشهرية للنساء ومدة الوحدة. ثم اخترعت الساعة الآلية الأولى في بلدة إيطالية صغيرة. سُحر البشر. ارتعبوا فيما بعد. هنا اختراع بشري أحصى مرور الزمن، وضع مسطرة وبوصلة لفُسحة الرغبة، قاس لحظات الحياة بدقة، كان لا يُطاق، كان خارج القانون الطبيعي. ورغم ذلك لا يمكن تجاهل الساعة الكبيرة. كان يجب أن تُعبد. أقنع المخترع أن يصنع الساعة العظيمة. فيما بعد، قُتل ودُمِّرت جميع الساعات الأخرى وبعد ذلك بدأ الحج.

ونوعاً ما، تمر الحياة كما أمام الساعة العظيمة. تضجُّ شوارع وأزقة البلدات بضحك الأطفال. تجتمع الأسر في الأوقات الملائمة لتأكل لحم البقر المجفف ولتشرب البيرة. ينظر الفتيان والفتيات إلى بعضهم بخجل عبر ردهة رواق مقنطر. يزين الرسامون المنازل والأبنية

بلوحاتهم. يتأمل الفلاسفة. لكن يمتلك كل نفس، كل وضع لرجل فوق أخرى، كل رغبة رومانسية عقدة ضئيلة تعلق في الذهن. وكل فعل، مهما كان ضئيلاً، يفقد حريته: ذلك أن جميع البشر يعرفون أنه في كاتدرائية معينة في وسط روما يتأرجح بندول برونزي ضخم موصولاً بإحكام إلى سقاطات ومسننات، يتدلى بندول برونزي ضخم يقيس حيواتهم. ويعرف كل شخص أنه يجب أن يجابه في أحد الأوقات الفواصل الداشرة لحياته يجب أن يبجل الساعة العظيمة. يجب أن يسافر كل رجل وامرأة إلى معبد الزمن.

هكذا، في أي يوم، في أية ساعة من أي يوم يمتد رتل من عشرة آلاف شخص منتشراً نحو الخارج من وسط روما، رتل من الحجاج الذين ينتظرون لينحنوا للساعة العظيمة. يقفون هادئين، يقرأون كتب الصلوات، يحملون أطفالهم. يقفون هادئين لكنهم يفورون غضباً في السر. ذلك أنهم يجب أن يراقبوا قياس ما يجب ألا يُقاس. يجب أن يراقبوا المرورالمنتظم للدقائق والعقود. لقد وقعوا في فخ اختراعهم واجترائهم، ويجب أن يدفعوا حياتهم ثمناً لذلك.

20 حزيران 1905

الزمن ظاهرة محلية في هذا العالم. تتكتكُ ساعتان قريبتان من بعضهما بنفس السرعة تقريباً. لكن الساعات التي تفصلها المسافة تتحرك بسرعات مختلفة، وكلما ابتعدت كلما أصبحت متعارضة. وما يصح على الساعات الكبيرة يصح على سرعة دقات القلب، حركة الشهيق والزفير، هبوب الريح في العشب الطويل. ذلك أن الزمن في هذا العالم يتدفق في سرعات مختلفة في أمكنة مختلفة.

وبما أن التجارة تتطلب اتحاداً مؤقتاً، لا توجد تجارة بين المدن. الانفصال بين المدن كبير جداً. ذلك أنه إذا كان الزمن الذي نحتاجه لإحصاء ألف فرنك سويسري يستغرق عشر دقائق في بيرن وساعة في زوريخ كيف يمكن أن تتعاون المدينتان؟ بالتالي، كل مدينة هي وحدها. كل مدينة هي جزيرة. يجب أن تزرع كل مدينة خوخها وكرزها وترعى ماشيتها وخنازيرها، كل مدينة يجب أن تبني طواحينها الخاصة. يجب أن تعتمد كل مدينة على نفسها.

أحياناً يغامر مسافر ويذهب من مدينة إلى أخرى. أهو محتار؟ ما استغرق بضع ثوان في «بيرن» قد يستغرق ساعات في «فرايبورغ» أو أياماً في «لوسيرن». في الوقت الذي يستغرقه سقوط ورقة في مكان ما، يمكن أن تتفتح زهرة في آخر. في الفترة التي تستغرقها الصاعقة في مكان يمكن أن يقع شخصان في الغرام في مكان آخر. في الوقت الذي يصبح فيه الطفل رجلاً، يمكن أن تنزلق قطرة مطر على لوح زجاج النافذة. مع ذلك، لا يدرك المسافر هذه الفروقات. حين يتحرك من مشهد زمني إلى آخر يتكيف جسمه مع حركة الزمن المحلية.

إذا تناغمت كل دقة قلب، كل حركة بندول، كل انفتاح جناحي طائر غاق، كيف سيعرف مسافر أنه انتقل إلى منطقة زمنية جديدة؟ إذا بقيت حركة الرغبات البشرية متناسبة مع حركة التموج في بركة، كيف سيعرف المسافر أن شيئاً قد تغير؟

حين يتواصل المسافر مع المدينة التي غادرها يدرك أنه دخل حقلاً زمنياً جديداً. يعرفُ أن المحل الذي يشتري منه ثيابه ازدهر وتنوع، أو أن ابنته عاشت حياتها وشاخت أو ربما أكملت زوجة جاره لتوها أغنية كانت تغنيها حين غادر بوابة منزله الأمامية. حينئذٍ يعرف المسافر أنه مقطوع في الزمن وفي المكان أيضاً. ما من مسافر يعود إلى مدينته الأصلية.

يفرح بعض البشر في العزلة. يجادلون أن مدينتهم هي أبهى المدن فلماذا يريدون التواصل مع مدن أخرى. أين الحرير الذي هو أنعم من حرير مصانعهم؟ أية أبقار أقوى من أبقار مراعيهم؟ أية ساعات أروع من ساعات محلاتهم؟ يقف بشرٌ كهؤلاء على شرفاتهم في الصباح ولا ينظرون أبداً إلى ما وراء حواف البلدة.

ثمة آخرون يريدون التواصل. يسألون دائماً المسافر النادر الذي يتجول في مدينتهم عن الأمكنة التي زارها، عن لون الغروب في أمكنة أخرى، عن طول البشر وحجم الحيوانات، عن اللغات الشائعة وعادات الخطبة والاختراعات. ومع مرور الزمن يسافر أحد الفضوليين ليرى بنفسه، يغادر مدينته ليستكشف مدناً أخرى، يصبح مسافراً ولا يعود أبداً.

إن عالم محلية الزمن هذا، إن عالم العزلة هذا، يُنتج تنوعاً حياتياً غنياً. ذلك أنه بدون امتزاج المدن يمكن أن تتطور الحياة في ألف طريقة مختلفة. يمكن أن يعيش البشر في إحدى المدن مع بعضهم ويمكن أن يعيشوا منفصلين في أخرى. يمكن أن يرتدي البشر ملابسهم باحتشام في إحدى المدن ويمكن ألا يرتدوا ثياباً في أخرى. يمكن أن يندب البشر موت الأعداء في إحدى المدن ويمكن ألا يكون لهم أصدقاء أو أعداء في أخرى. يمكن أين يسير البشر في إحدى المدن ويمكن أن يركبوا دراجات غريبة الصنع في أخرى. إن تنوعاً كهذا يوجد في مناطق تبعد عن بعضها مائة كيلومتر. فقط وراء جبل، فقط وراء نهر تقع حياة مختلفة. مع ذلك لا تتحدث هذه

الحيوات مع بعضها. والوفرة التي تسببها العزلة تخنقها
هذه العزلة نفسها.

22 حزيران 1905

إنه يوم تخـرج في «أغاسـيس جمنـازيو». يقـف مائـة وتسعة وعشرون طالبـاً يرتـدون قمصانـاً بيضـاء وربطـات عنق بنية علـى الدرجـات الرخاميـة ويتململـون في ضـوء الشمس بينما يقرأ المدير أسماءهم. يجلـس أوليـاء الأمـور والأقربـاء في المـرج الأمـامي ويصغـون بفتـور محدقـين إلى الأرض ويغفـون علـى كراسيهم. يلقـي الطـالب المتفـوق خطابه بصوت رتيب. يبتسم بوهن حين يستلم ميداليتـه ثم يرميها في دغل بعد الإحتفال. لا أحـد يهنئـه. يسـير

الأولاد وأمهاتهم وآباؤهم وشقيقاتهم دون همة إلى منازلهم في شارع أمتهاوس وأرستراس أو إلى المقاعد المنتظرة قرب بانهوفبلاتز، يجلسون بعد وجبة الظهر، يلعبون الورق لتمضية الوقت وينامون. تطوى الملابس وتوضع بعيداً إلى أن تأتي مناسبة أخرى. يذهب بعض الأولاد إلى الجامعة في بيرن أو في زوريخ في نهاية الصيف، يعمل البعض في مشاريع آبائهم، يسافر البعض الآخر إلى ألمانيا أو فرنسا بحثاً عن وظيفة. تحصل هذه السفرات بلا مبالاة، بشكل آلي، كتأرجح البندول، كلعبة شطرنج تكون فيها كل حركة إجبارية. ذلك أن المستقبل ثابت في هذا العالم.

في عالم كهذا ليس الزمن سائلاً يتفرق ليفسح المجال للأحداث. الزمن صلب، بنية كالعظم تمتد بلا نهاية إلى الأمام والخلف محولة المستقبل والماضي إلى مستحاثتين. إن كل فعل، كل فكرة، كل نفس، كل تحليق طائر، كل هذه الأشياء محددة بشكل كامل وإلى الأبد.

في قاعة الرقص في مسرح ستاد تتحرك راقصة باليه عبر خشبة المسرح وتقفز في الهواء. تتعلق لحظة ثم تهبط

علـــى الأرض. تتصـــالب الرجـــلان وترفرفـــان، ينفتـــح الذراعـان في قـوس مفتـوح. تسـتعد الآن للـــدوران علـــى أصابع القدم، تتحـرك الرجـل اليمنـى خلفـاً إلى الموضـع الرابع، تدفع على قدم واحدة، يتحرك الذراعان لتسريع الدورة. إنها الدقة. إنها ساعة. تفكر وهـــي ترقـص أنهـا يجب أن تكون قد طارت قليلاً في قفزة واحـــدة لكنهـا لا تقدر أن تطير لأن حركاتها ليســت لهـا. إن كـل تفـاعل لجسدها مع الأرض أو مع المكان محـدد مسـبقاً إلى جـزء من البليون من الإنـش. مـا مـن مكـان للطـيران. سيشـير الطيران إلى غياب اليقين، في الوقت الذي لا يوجـد فيـه غياب لليقين. وهكذا تتحرك حول خشبة المسرح بقدريـه كالسـاعة لا تقـوم بقفـزات أو مجازفـات غـير متوقعـــة، تلمس الحوّار بدقة ولا تحلم بوثبات غير مخطط لها.

في عـالم يكـون فيـه المسـتقبل ثابتـاً، الحيــاة رواق لانهائي من الغرف، إحدى الغرف مضـاءة كـل لحظـة، الغرفة التالية مظلمة لكنها مجهزة. نســير مـن غرفـة إلى أخرى، ننظر إلى الغرفة المضاءة، اللحظة الحـاضرة، ثـم نسير. لا نعرف الغرف التي أمامنا لكننـا نعـرف أننـا لا نستطيع أن نغيرها. نحن نظارة حيواتنا.

يسير الصيدلاني الذي يعمل في مجال الأدوية في شارع كوخر عبر المدينة أثناء استراحة بعد الظهر. يقف في السوق عند الحانوت الذي يبيع الساعات، يشتري سندويشة من المخبز المجاور ويتابع سيره نحو الغابة والنهر. إنه مدين لصديقه بنقود لكنه يفضل أن يشتري الهدايا. وبينما يسير معجباً بمعطفه الجديد يقرر أنه يقدر أن يدفع لصديقه العام القادم أو ربما لا يقدر أن يدفع أبداً. ومن يستطيع أن يلومه؟ في عالم يكون المستقبل فيه ثابتاً لا يوجد صواب أو خطأ، ذلك أن الصواب والخطأ يقتضيان حرية اختيار، ولكن إذا كان كل فعل مختاراً مسبقاً، لن يكون هناك حرية اختيار. في عالم المستقبل فيه ثابت لا أحد مسؤولاً. الغرف مرتبة مسبقاً. تخطر في ذهن الصيدلاني جميع هذه الأفكار حين يسير على طول الممر عبر برونغاسهالدي ويستنشق هواء الغابة الندي. يسمح لنفسه بابتسامة، كونه مسروراً جداً من قراره. يستنشق الهواء الندي ويشعر بأنه حر في أن يفعل ما يريد، حر في عالم دون حرية.

25 حزيران 1905

إنه بعد ظهر يوم الأحد. يطوف البشر في آرستراسي مرتدين ثياب الأحد ومتخمين من عشاء الأحد، يتحدثون بهمس قرب غمغمة النهر. الحوانيت مغلقة. تسير ثلاث نساء في السوق، يتوقفن لقراءة الإعلانات، للتحديق بالواجهات، يتابعن السير بهدوء. ينظف صاحب نُزُل الدرج، يجلس ويقرأ صحيفة، يستند إلى حائط حجرٍ رملي ويغمض عينيه. الشوارع هاجعة، الشوارع نائمة وفي الجو تعوم موسيقا كمان.

يقف شاب وسط غرفة تشغل كتبٌ طاولاتها ويعزف على كمانه. إنه يحب كمانه الذي يصدر لحناً جميلاً. وبينما هو يعزف ينظر إلى الشارع في الأسفل ويلمح شخصين قريبين من بعضهما، ينظر إليهما بعينين بنيّتين عميقتين ويشيح بصره بعيداً. يقف ثابتاً. موسيقاه هي الحركة الوحيدة، موسيقاه تملأ الغرفة. يقف هادئاً ويفكر بزوجته وطفله الرضيع اللذين يشغلان غرفة الطابق الأرضي.

وبينما هو يعزف، يقف رجل آخر مماثل وسط غرفة ويعزف على كمانه. ينظر الرجل الآخر إلى الشارع في الأسفل يلمح شخصين قريبين من بعضهما، يشيح بصره بعيداً ويفكر بزوجته وولده. وبينما هو يعزف، يقف رجل ثالث ويعزف على كمانه. وفي الحقيقة ثمة رابع وخامس، ثمة عدد لا يحصى من الشبان الذين يقفون في غرفهم ويعزفون على كمنجاتهم. ثمة عدد لا يحصى من الألحان والأفكار. وهذه الساعة التي يعزف الشبان أثناءها على كمنجاتهم ليست ساعة واحدة بل ساعات عديدة. ذلك أن الزمن هو مثل الضوء بين مرآتين. يقفز الزمن إلى الأمام والخلف منتجاً عدداً لا

يحصى من الصور والألحان والأفكار. إنـه عـالم نُسـخ لا تحصى.

وبينما هو يفكر، يشعر الرجل الأول بالآخرين، يشعر بموسيقاهم وأفكارهم، يشعر بأنه مكرّر آلاف المـرات، أن غرفته التي تحتوي كتبـاً تتكـرر ألـف مـرة، يشـعر بـأن أفكاره مكررة. هل يجب عليـه أن يهجـر زوجتـه؟ مـاذا عن تلك اللحظـة في مكتبـة المعهـد العلمـي العـالي حـين نظرت إليه عبر المكتب؟ ماذا عن شعرها البني الكثيـف؟ لكن، ما الراحة التي قدّمتها له؟ أية عزلة ما عدا في هذه الساعة حيث يعزف على كمانه؟

يشعر بالآخرين، يشعر أنه مكرر ألف مرة، يشعر أن غرفته مكررة ألف مرة، أن أفكاره مكررة. أي تكـرار هـو تكراره، هويته الحقيقيـة، ذاتـه المسـتقبلية؟ أيجـب أن يترك زوجته؟ مـاذا عـن تلـك اللحظـة في مكتبـة المعهـد العلمي العالي؟ أية راحة قدمتها له؟ أية عزلة ما عـدا في هذه الساعة حيث يعزف على الكمـان؟ تقفـز أفكـاره إلى الأمام والخلف ألف مرة بين كـل نسـخة عنـه، يضعـف مع كل قفزة. أيجب أن يهجر زوجته؟ أية راحة قدمتها له؟ أية عزلة؟ تبهت أفكاره حتـى لا يكـاد يتذكـر مـاذا

كانت الأسئلة أو لماذا. أية عزلة؟ ينظر إلى الشارع الخاوي ويعزف. تطوف موسيقاه وتملأ الغرفة وحين تمر الساعة التي كانت ساعات لا تحصى، يتذكر الموسيقى فقط.

27 حزيران 1905

ينقل رجل متوسط العمر الأحجار من المحجر الذي يقع إلى الشرق من بيرن إلى مكان البناء في «هولدرستراسي» كل ثلاثاء. يمتلك زوجة وولدين كبرا وغادرا وشقيقاً مسلولاً يعيش في برلين. يرتدي معطفاً صوفياً رمادياً في جميع الفصول. يعمل في المحجر إلى بعد حلول الظلام، يتناول العشاء مع زوجته وينام، يعتني بحديقته أيام الأحد وفي صباحات الثلاثاء يحمّل شاحنته بالأحجار ويذهب إلى البلدة.

حـين يـأتي يتوقـف في السـوق ليشـتري الطحـين والسكر. يمضي نصف ساعة جالسـاً بهـدوء علـى المقعـد الخلفي لكاتدرائية القديس فنسنت. يتوقف عنـد مكتـب البريد ليرسـل رسـالة إلى برلـين. وحـين يعـبر البشـر في الشارع يحدق بالأرض. يعرفه بعض البشر، يحـاولون أن يلتقطوا عينيه أو يسلموا عليه. يغمغم ويتابع سيره. حتى حين يسلم أحجـاره في «هولدرستراسـي» لا يسـتطيع أن ينظر إلى عيني البناء. يُشيح بصره جانبـاً ويتحـدث مـع الحائط حين يستجيب لـثرثرة البنـاء الـودودة، يقـف في زاوية حين توزن أحجاره.

منذ أربعين عاماً، في بعـد ظهـر أحـد أيـام آذار شخّ تحته في المدرسة أثناء الـدرس. لم يسـتطع أن يحبسـها. حـاول أن يبقـى علـى الكرسـي لكـن الأولاد الآخريـن شاهدوا البقعة المبللة على بنطاله وجعلوه يدور في الغرفـة بشكل متواصـل. أشـاروا إلى البقعـة المبللـة علـى بنطالـه وزأروا. في ذلك اليوم بدا ضوء الشـمس كجـداول حليـب سكبت من النافذة وسـفحت علـى ألـواح أرض الغرفـة. تدّلت دزينتان من الستارات على علاقـات قـرب البـاب. امتدت علامات الحوّار علـى اللـوح وهـي أسمـاء عواصم

أوروبا. امتلكت المقاعد سطوحاً فتّالةً وأدراجاً. على مقعده نُحت اسم جوهان في أعلى اليمين. كان الجو رطباً بسبب أنابيب البخار. وكانت ساعة بعقربين حمراوين كبيرين تشير إلى الثانية والربع. استهزأ الصبية منه، استهزأوا منه وهم يطاردونه في الغرفة والبقعة المبللة على بنطاله. صاحوا وسمّوه: «فتى المثانة، فتى المثانة، فتى المثانة».

أصبحت تلك الذكرى حياته. حين يستيقظ في الصباح يكون الصبي الذي شخّ تحته، حين يعبر البشر في الشارع يعرف أنهم يشاهدون بقعة مبللةً على بنطاله، ينظر إلى بنطاله ثم يشيح بصره بعيداً، حين يزوره ولداه، يبقى داخل غرفته ويتحدث معهما من خلال الباب. إنه الصبي الذي لم يستطع أن يحبسها.

لكن ما هو الماضي؟ هل من المرجح أن واقعية الماضي هي مجرد وهم؟ أيمكن أن يكون الماضي مِشكالاً[1]، نموذج صور تتبدل مع كل هبوب نسيم مفاجئ، مع كل

---

[1] أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون ما إن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان.

فكرة وضحكة؟ وإذا كان التبدل في كل مكان، كيف سنعرف؟

في عالمٍ يتبدل فيه الماضي يستيقظ عامل المحجر في أحد الصباحات ولم يعد هو الصبي الذي لم يستطع أن يحبسها. كان بعد الظهر ذاك الذي تلاشى منذ زمن بعيد بعد ظهر آخر فقط. في بعد الظهر ذاك الذي نُسي، جلس مع أطفال آخرين بعد الإنصراف من المدرسة. يمتلك محجراً وتسع بزّات الآن. يشتري آنية فاخرة لزوجته ويقوم بنزهات طويلة معها بعد ظهر أيام الأحد. يزور أصدقاءً في شارع أمتهاوس وآرستراس، يبتسم لهم ويصافحهم. يرعى حفلات موسيقية في الكازينو.

في صباح ما يستيقظ و...

حين تشرق الشمس فوق المدينة يتثاءت عشرة آلاف شخص ويتناولون الخبز المحمص والقهوة. يملأ عشرة آلاف شخص أروقة شارع كرام المقنطرة أو يذهبون إلى العمل في شارع شبايشا أو يأخذون أولادهم إلى الحديقة. يمتلك كل منهم ذكرياتٍ: أب لم يستطع أن يحب ولده، آخر يربح دائماً، عاشق بقبلة لذيذة، لحظة غش في الإمتحان المدرسي، الهدوء الناتج عن سقوط ثلج

جديد، نشر قصيدة. إن هذه الذكريات هي كقمح في الريح، أحلام هاربة، أشكال في غيوم. والأحداث التي حصلت مرة تفقد واقعيتها، تتبدل في لمحةٍ، في عاصفةٍ، في ليل. ومع مرور الزمن، لم يحدث الماضي أبداً. لكن من يستطيع أن يعرف؟ من يستطيع أن يعرف أن الماضي ليس حقيقياً كهذه اللحظة حين تتدفق الشمس فوق جبال الألب البيرينية ويغني البقالون وهم يرفعون ظلات حوانيتهم ويبدأ عامل المحجر تحميل شاحنته.

28 حزيران 1905

تقول الجدة وهي تربت على كتف ولدها: «لا تأكل كثيراً، ستموت قبلي وعندئذٍ من سيعتني بفضّتي؟ تقوم الأسرة بنزهة على ضفة نهر آري إلى الجنوب من بيرن بعشرة كيلومترات. تنهي الفتيات غداءهن ويطاردن بعضهن حول شجرة تنّوب. أخيراً يُصَبْن بالدوار ويتساقطن على العشب الكثيف، يستلقين هادئات لحظة ثم يدرن على الأرضٍ إلى أن يدُخن ثانية. يجلس الإبن وزوجته السمينة جداً والجدة على بطانية ويأكلون لحم

البقر المجفف والجبنة وخبز العجين المحمض مع الخردل والعنب وكعكة شوكولاتة. وبينما هم يأكلون ويشربون يهب نسيم عليل فوق النهر ويستنشقون هواء الصيف العذب. ينزع الولد حذاءيه ويحرك أصابع قدميه في العشب.

فجأة يحلّق فوقهم سرب من الطيور. يقفز الشاب عن البطانية ويركض وراءه دون أن ينتعل حذاءيه. يختفي فوق التل. ينضم إليه آخرون شاهدوا الطيور من المدينة.

يحط طيرعلى شجرة. تتسلق امرأة الجذع وتتمدّد لتمسك الطائر بيد أنه يقفز بسرعة إلى غصن أعلى. تتسلق إلى الأعلى، تقف بحذر على غصن وتزحف إلى الأمام. يقفز الطائر عائداً إلى الغصن السفلي، وبينما تتعلق المرأة عاجزة في الشجرة يحط طائر آخر ليأكل البذار. ينسل رجلان خلفه حاملين وعاءً زجاجياً على هيئة جرس. إلا أن الطائر أسرع منهما، يحلق في الجو ويندمج في السرب.

تطير الطيور عبر البلدة. يقف خوري كاتدرائية القديس فنسنت في برج الناقوس محاولاً استدراج الطيور

إلى النوافذ المقوسة. تشاهد عجوز في حدائق شارع كلايينشانسا الطيور تبيت مؤقتاً في دغل. تسير ببطء نحوها حاملة وعاءً جرسيَّ الشكل، تعرف أنها لا تملك فرصة لاصطياد طائر، ترمي وعاءها على الأرض وتشرع في البكاء.

وهي ليست وحدها المحبطة. في الحقيقة يرغب كل رجل وكل امرأة بطائر، ذلك أن سرب البلابل هذا هو الزمن. يرفرف الزمن ويتململ ويتقافز مع هذه الطيور. اِصْطَدْ أحد هذه الطيور وضعْهُ تحت الوعاء الجرسي الشكل يتوقف الزمن. اللحظة متجمدة بالنسبة لجميع البشر والأشجار والتربة العالقة في الداخل.

من النادر أن تُصطاد هذه الطيور، والأطفال الذين يمتلكون وحدهم السرعة الكافية لاصطيادها لا يرغبون بإيقاف الزمن. ذلك أن الزمن بالنسبة لهم يتحرك مسبقاً ببطء. يندفعون من لحظة إلى لحظة متلهفين لأعياد الميلاد ورؤوس السنة، بالكاد يقدرون على الانتظار بقية حيواتهم. أما الكبار فيرغبون بإيقاف الزمن لكنهم بطيئون جداً ومنهمكون بحيث لا يقدرون على اصطياد أي طائر. يتوقون إلى اعتقال دقيقة واحدة وهم جالسون

إلى طاولة الإفطار يتناولون الشاي أو إلى اعتقال لحظة حين تعلق الحفيدة محاولةً الخروج من ثيابها أو بعد ظهر حين تعكس شمس الشتاء الثلج وتغمر غرفة الموسيقا بالضوء. لكنهم بطيئون. يجب أن يراقبوا الزمن يقفز ويطير بعيداً.

في تلك اللحظات عندما يتم اصطياد طائر، يستمتع الصيادون باللحظة التي تتجمّد. يتشمّمون الموضع الدقيق للأسرة والأصدقاء، التعبيرات الوجهية، السعادة الأسيرة الناجمة عن جائزة أو ولادة أو قصة حب، رائحة القرفة المعتقلة أو البنفسج المضاعف البياض. يستمتع الصيادون باللحظة المجمدة لكنهم يكتشفون حالاً أن البلبل ينفق، تبهت أغنيته الواضحة التي تشبه صوت الناي وتصمت، وتذوي اللحظة الأسيرة وتموت.

خاتمـــة

تدق ساعة برج ثماني مـرات. يرفـع موظـف بـراءات الاختراع الشاب رأسه عن المكتب، يقف ويتمدّد، يســير إلى النافذة.

في الخـارج، البلـدة مستيقظة. تتجـادل امـرأة مـع زوجها وهي تناوله غداءه. تتبادل مجموعة من الأولاد في طريقها إلى جمنازيو شارع تسـويوهاوس قـذف كـرة قـدم وتتحدث بحماس عن عطلة الصيف. تسير امرأتان بخفة نحو السوق حاملتين كيسي تسوّق فارغين.

بعد وقت قصير يدخل موظف براءات اختراع مسؤول من الباب، يتجه إلى مكتبـه ويبـدأ عملـه دون أن يتفـوّه بكلمـة. يسـتدير آينشـتاين وينظـر إلى السـاعة الـتي في الزاوية: إنها الثامنة وثلاث دقائق. يلعـب بقطـع نقديـة في جيبه متململاً.

في الثامنة وأربع دقائق تدخل ضاربة الآلة الكاتبة. تشاهد آينشتاين حاملاً مخطوطته المكتوبة بخط اليد وتبتسم. لقد طبعت سابقاً عدداً من أوراقه الشخصية في وقت فراغها وكان دائماً يدفع برحابة صدر ما تطلبه. إنه هادئ، رغم أنه يروي أحياناً نكات. إنها تحبه.

يسلمها آينشتاين مخطوطته التي تحوي نظريته في الزمن. إنها الثامنة وست دقائق. يسير إلى مكتبه، ينظر إلى كومة الملفات، يتجه إلى رف كتب ويبدأ بإخراج أحد الدفاتر. يستدير ويعود إلى النافذة. الجو صاحٍ بشكل مخالف للعادة في آخر حزيران.

وفوق بناء شقة يستطيع أن يرى أطراف جبال الألب الزرقاء وقممها البيضاء. في الأعلى النقطة السوداء الصغيرة التي هي لطائر تقوم بدورات بطيئة في السماء.

يسير آينشتاين إلى مكتبه، يجلس لحظة ثم يعود إلى النافذة. يشعر أنه فارغ. يفقد اهتمامه بمراجعة براءات الإختراع أو بالتحدث إلى بيسو أو بالتفكير بالفيزياء. يشعر أنه فارغ ويحدق دون اهتمام إلى النقطة السوداء الصغيرة وإلى جبال الألب.

صدر للمترجم

١ـ شاشات التاريخ ـ شعر	دار المستقبل
٢ـ ميثاق الموج ـ شعر	دار الطليعة الجديدة
٣ـ العبور إلى العباسية ـ قصص قصيرة مترجمة	دار المستقبل
٤ـ ذاكرة النار لإدواردو كاليانو	دار الطليعة الجديدة
٥ـ أساطير الخلق ـ ترجمة	دار الينابيع
٦ـ المريض الإنكليزي ـ رواية مترجمة	دار المدى
٧ـ الصراع بين العلم والدين ـ برتراند رسل	دار الطليعة الجديدة
٨ـ السيرة الدينارية ـ قصص قصيرة	دار المدى

أحلام آينشتاين = Einestein's Dreams/ آلن لايتمان؛ ترجمة:
أسامة اسبر. ـ دمشق: دار الطليعة الجديدة، ١٩٩٧ ـ ١٥٨ ص؛ ٢٤ سم.

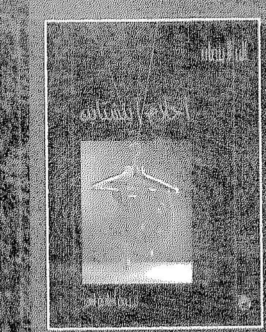
١ـ ٨٢٣ أم ل ا ي أ ٢ـ العنوان
٣ـ العنوان الموازي ٤ـ لايتمان
٥ـ اسبر

ع ـ ١٤٢٨/ ٩/ ١٩٩٧

مكتبة الأسد







- رواية أولى مدهشة، تأخذنا إلى أبعد مما اعتدنا أن نؤخذ إليه، أصيلة وذكية..

(صندي تايمز)

- هذا كتاب صغير ومدهش، ويجب أن يقرأه حتى الأكثر انشغالاً بيننا..

(ستريت بيتسبرغ تايمز)

- رواية متألقة عن الزمن في طيرانه المدهش..

(شيكاغو صن تايمز)

- محرضة للتفكير، ممتعة للقراءة..

(وول ستريت جورنال)

- كتاب ساحر

(واشنطن بست بوك وورلد)

- فاتنة بشكل لانهائي.. تحقيق خلاب حول الطبيعة البشرية.. ممتعة.. لايتمان فنان يرسم بمفهوم الزمن.. استقصاء لطبيعة الزمن الماكرة..

(لوس انجلوس تايمز)

- حقل سحري ميتافيزيقي، آسر وفاتن وممتع..

(نيويورك تايمز)

- كتاب صوفي رائع الغرابة، وذكي حول التأملات في الزمن، شعري وجديد..

(شيكاغو تريبيون)

Platinum Computer Graphics
Damascus - 3312818